1
دراسات

مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

الغزو البرتغالي

على ساحل حضرموت
ودور أبناء الحامي في التصدي له

تأليف
محمد علوي باهارون

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

الغزو البرتغالي

على ساحل حضرموت

ودور أبناء الحامي في التصدِّي له

ⓒ مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب م/ حضرموت: 280/ 2021م

عنوان الكتاب: الغـزو البرتغـالي على سـاحل حضرمـوت ودور أبنـاء الحـامي في التصدي له

تأليف: محمد علوي عبدالرحمن باهارون

حجم الكتاب: 14 × 21 سم

الصفحات: 106 ص

الطبعة الأولى

1443هـ - 2022م

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

دار الوفاق الحديثة للنشر والتوزيع - مصر

هاتـف وواتس آب: 00201008170225

بريدً إلكتروني: daralwefaqnet@gmail.com

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

الغزو البرتغالي

على ساحل حضرموت

ودور أبناء الحامي في التصدِّي له

تأليف

محمد علوي عبدالرحمن باهارون

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

الإهداء

إلى الأبطال البواسل المنسيّين والشهداء من أبناء الحامي الذين تصدوا للهجمات البرتغالية بإقدام وشجاعة وثبات.

وإلى الشهداء السبعة، وبقية الشهداء الحضارمة وغير الحضارمة ضد الغزو البرتغالي الغاشم على موانئ حضرموت.

أهدي هذه الصفحات المشرقة نبراساً مضيئاً إلى دروب التضحية والفداء.

محمد علوي

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

تصدير

يأتي هذا الكتاب في سلسلة من الكتب التي يصدرها مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر ويتوخى من خلالها تنويع مصادر المعرفة لا سيما في ما يتعلق بحضرموت وتاريخها وثقافتها. وهذا الكتاب يقوم بتسليط الضوء على الجانب البحري، الذي ما زالت الدراسات بشأنه قليلة .. ولعل في هذا الإصدار ما يحفز عددًا آخر من الباحثين للكتابة في هذا المجال فما زالت مخطوطات التراث البحري بحاجة إلى تحقيق ودراسة. وقد كان للأستاذ محمد علوي باهارون هذا الإسهام في التعريف بدور أهل مدينة الحامي الحضرمية في النشاط البحري الذي غدا الآن تاريخًا نعتز به، ونعمل على توثيقه.

مركز حضرموت للدراسات
التاريخية والتوثيق والنشر

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

مُقَـدّمة

تمتعت الموانئ العربية المطلة على بحر العرب والمحيط الهندي بأهمية إستراتيجية هامة، لإشرافها على طريق التجارة العالمي الذي يربط الجزيرة العربية بموانئ الهند والسند وشرقي إفريقيا، مما جعلها محل أطماع الحكومات المجاورة، والدول الغربية الكبرى في أوربا كأسبانيا والبرتغال وهولندا وبريطانيا.

وحضرموت، بموانئها التاريخية المتعددة وموقعها الجغرافي المتميز، كانت محل أطماع الغزاة البرتغاليين منذ مطلع القرن العاشر الهجري إلى نهاية القرن الحادي عشر الهجري.

وقد دوّنت كتب التاريخ الحضرمي الغارات البرتغالية على موانئها كقصيعر ورأس باغشوة والحامي والشحر والمكلا وبروم، ولعل من أبدع تلك المراجع التاريخية كتاب: (بهجة السمر في أخبار بندر سعاد المشتهر) للربان المؤرخ سالم بن عوض باسباع (المتوفى سنة ٩٥٠هـ) الذي عاصر حوادث الغزو البرتغالي على مينائي

الشحر والحامي وبقية موانئ حضرموت. ويليه في الأهمية كتاب (تاريخ الحوادث والسنين) للمؤرخ محمد بن عمر الطيب بافقيه الشحري (المتوفى سنة ١٠١٥هـ)، ثم كتاب (زاد الأسفار في أخبار الشحر وعدن ومالابار) للأديب سعيد بن علي بامعيبد (المتوفى سنة ١٣٤٠هـ). وقد لخص معظم ما جاء في مؤلفات باسباع وبافقيه وبامعيبد، الأستاذ المؤرخ الأديب محمد بن عبدالقادر بامطرف (المتوفى سنة ١٤٠٨هـ) في كتابه التاريخي القيِّم (الشهداء السبعة)، الذي تحدث فيه عن الغزو البرتغالي على الشحر والحامي وما اتصل به من ملابسات وحوادث آخذا بعضها برقاب بعض، وهو من أمتع الكتب التي تحدثت عن الغزو البرتغالي على جنوب الجزيرة العربية والهند وشرقي أفريقيا، كتب بأسلوب أدبي شائق، وهو المصدر الأساسي الذي اعتمدنا عليه في كتابة هذه الدراسة المختصرة.

وتأتي هذه الدراسة تخليداً لدور أبناء الحامي في التصدي لذلك العدوان البرتغالي، وإن كانت كتب التاريخ لم تتوسع في ذلك بذكر الأسماء والأشخاص الذين شاركوا في ذلك وأسماء سفنهم والمواقع

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

ونحوها من المعلومات الهامة؛ إلا أننا أقدمنا على كتابة ذلك لرغبة جامحة في النفس منذ سنوات عديدة، ونظراً لشحة المصادر أحجمنا عن ذلك، ولكنها لم تتحقق إلا هذه الأيام بتوفيق الله تعالى.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وخمسة مباحث وخاتمة على النحو التالي:

المبحث الأول: الغزو البرتغالي على الموانئ العربية وأسبابه.

المبحث الثاني: أهل الحامي ودورهم في التصدي للعدوان البرتغالي على ميناء عدن.

المبحث الثالث: الغزو البرتغالي الغاشم على ميناء وساحل الحامي.

المبحث الرابع: مساندة أهل الحامي إخوانهم الحضارمة في صد العدوان البرتغالي على ميناء الشحر.

المبحث الخامس: القرصنة البرتغاليّة على السفن الحضرميّة الحاميّة وآثارها السلبيّة.

آملين أن تكون هذه الدراسة قد أسهمت في توضيح ذلك الدور التاريخي لهذه المدينة الغنية بتاريخها الملاحي البحري منذ فجر التاريخ، ودور أبنائها الأبطال في مقاومة الغزو البرتغالي على حضرموت، والتصدي لهجماتهم الانتقامية في الشواطئ وفي أعالي البحار، بكل قوة وثبات نابعين من كمال إيمانهم بالله الخالق عزّ وجل.

نرجو أن نكون قد وفينا بالمقصود فيما بذل من مجهود، وإذا كان هناك من خطأ أو سهو وقعنا فيه نرجو التنبيه عليه لنتلافيه في الطبعة الثانية إن شاء الله، وبالله الاعتماد وهو ولي التوفيق والنجاح.

محمد علوي عبدالرحمن باهارون

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

المبحث الأول

الغزو البرتغالي على الموانئ العربيّة وأسبابه

كانت تجارة المحيط الهندي بأيدي الملاحين والتجار العرب منذ أن ازدهرت العلوم الملاحية والفلكية والرحلات البحرية في عصر الدولة العباسية. فكانوا ينقلون تجارة الهند كالتوابل والعاج والأخشاب إلى موانئ المغرب والمشرق، ومن ثم تصل إلى بلاد البرتغال مما يؤدي إلى ارتفاع أثمانها؛ لكونها لا تأتي مباشرة إلى الموانئ البرتغالية، فقرر ملك البرتغال الاستيلاء والاستحواذ على تلك السيادة العالمية التي يحتلها البحارة والتجار العرب، فقام بعدة محاولات بحرية للوصول إلى الهند منذ منتصف القرن الخامس عشر. وفي عام ١٤٨٧م أرسل الملك البرتغالي بعثة بحرية بقيادة الملاح برتليميوديا‌ز إلى الساحل الغربي لإفريقيا فوصل إلى رأس العواصف ثم أطلق عليه رأس الرجاء الصالح، وكانوا يرسلون الجواسيس لجمع المعلومات عن الهند وتجارة العرب فيها، عن

طريق السفر عبر البحر الأحمر، متظاهرين بالتجارة ويتظاهر بعضهم بالإسلام، ويركبون في مراكب العرب أنفسهم ليتجسسوا عليهم عن كثب، ومن هؤلاء بعثة الفونس ودي بايقا التي وصلت إلى مصر ومنها إلى الساحل الإفريقي قبل رحلة كولمبس بعشر سنوات ثم عاد إلى مصر ومعه ذخيرة من المعلومات عن تجارة التوابل والطريق إلى الهند، وكل هذا جرى تمهيداً لرحلة فاسكو ديجاما.[1]

وفي عام ١٤٩٧م تمكن فاسكو ديجاما من الدوران حول رأس الرجاء الصالح والوصول إلى المياه الشرقية، وكانت رحلته هذه، رحلة استطلاعية، فشل خلالها في كسب صداقة حكام الموانئ التي زارها، لكنه اكتشف أن العرب أو (المور) يسيطرون على الموانئ والمدن التجارية على سواحل شرقي أفريقية والجزر القريبة منها، وعلى معظم التجارة البحرية في غربي المحيط الهندي. ثم عاد داغاما إلى الهند مرة ثانية في سنة ١٥٠٢م حاملاً أوامر مولاه بتخريب

(١) أنور عبدالعليم، ابن ماجد والبرتغال ص ٥٥، ٥٦، الندوة العلمية لإحياء تراث ابن ماجد، الجزء الثاني.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

موانئ العرب، وتحطيم مراكبهم، وسد مدخلي البحر الأحمر والخليج العربي في وجه التجارة البحرية. وفعلاً قام البرتغاليون في هذه السنة بمهاجمة السفن التجارية في الطريق بين هرموز والهند، واستولوا على حوالي سبع سفن، وقتلوا بعض ركابها وأسروا الباقين، وهذه الحادثة كانت - كما قال بافقيه الشحري ـ أول أعمال القرصنة البرتغالية في بحر العرب.[1]

وقد قاد فاسكو دي جاما في رحلته الأولى في دوران حول رأس الرجاء الصالح ربان مسيحي يقال له (كاناكا) وليس المعلم العربي أحمد بن ماجد، كما روّج له النهروالي صاحب كتاب (البرق اليماني في الفتح العثماني)، وتبعه آخرون. يقول الأستاذ حسن صالح شهاب في تبيين تلك الفرية: إن المصادر البرتغالية لا تذكر أن الذي قاد (داغاما) إلى الهند كان عربياً. وأهم هذه المصادر، وهو سجل سفينة داغاما (Logbook)، ورد فيه أن حاكم ماليندي بشرق

(١) حسن صالح شهاب، فن الملاحة عند العرب، ص ٤٦.

افريقية، عندما طلب إليه داغاما أن يمده بمرشد إلى الهند، أرسل إليه رباناً مسيحياً، ويذكر في سجله المذكور: أن في يوم الأحد ١٥ ابريل ١٤٩٨م أخبروه العرب الذين أسرهم أن في مدينة مالندي أربعة مراكب لمسيحيين من الهند، وأننا إذا تكرمنا بنقلهم إلى هناك سيوفرون لنا عوضاً عنهم، مرشدين مسيحيين وكل ما نحتاج إليه بما في ذلك الحطب والماء وغيرهما. ولعل ما اشتهر به ابن ماجد في الأوساط البحرية، من المهارة والخبرة الواسعة في الملاحة، والجرأة على خوض البحار الخطرة كان سبباً في إلصاق تهمة إرشاد داغاما إلى الهند به.[1]

ولما كانت الموانئ العربية الجنوبية، كموانئ عمان والمهرة وحضرموت وعدن، تمثل شريان الحياة الذي يصل بين الشرق والغرب وسائر مناطق أوربا، استحوذت على البرتغاليين فكرة احتلالها وشل حركتها التجارية والملاحية والسيطرة عليها.

(١) المرجع السابق ص ٦٩-٧٠، وابن ماجد والبرتغال، مرجع سابق.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

وبما أن عدن وهرمز كانتا المنفذين الإسلاميين الوحيدين اللذين تتسرب منهما السلع الشرقية إلى أوروبا عن طريق الأسواق في منطقة المشرق الغربي، فقد وصل إليهما ذلك الإعصار البرتغالي عندما هاجمتهما قوة بحرية برتغالية عام ١٥٠٦م مكونة من أربع عشرة سفينة بقيادة تريسان دي كونها وكان بقيادة القائد البرتغالي أفونسوا دا البوكيرك الذي روّع سكان الجنوب العربي وسواحل عمان والخليج. ولما تولى البوكيرك المذكور منصب نائب الملك في الهند عام ١٥٠٩م زاد من تركيز سيطرته على سواحل الهند والشرق الأقصى والخليج والجنوب العربي، وقام بتعقب السفن التجارية العربية أينما وجدها في مياه المحيط الهندي وبحر العرب وسواحل الخليج العربي وأسرها وإحراقها أو إغراقها مع بحارتها بكل قسوة، ونهب بضاعتها وقتل ربابنتها.[1]

(١) محمد حميد السلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة مابين ١٥٠٧ – ١٥٢٥م، ص ٥٧، ٥٨.

ثم هاجم البرتغاليون بقيادة الفونسو البوكيرك جزيرة سقطرى واحتلوها، ثم هاجموا موانئ الساحل العماني وفعلوا فيها الأفاعيل من قتل وإغراق وإحراق وغيرها فمن ذلك أنه - أي البوكيرك - دمّر في رأس الحد ما بين ثلاثين إلى أربعين سفينة صيد لأهل هرمز وقلهات، ثم وجد بعض السفن والسنابيك العمانية عند خور جرامه فقصفها بمدافعه، ثم توجه إلى قلهات، وكانت يومئذ أكبر محطة لتزويد السفن القادمة من الهند إلى الخليج العربي أو البحر الأحمر، ومركزاً لتوزيع السلع الشرقية في المنطقة، فصالح حاكمها المسمى (شرف الدين) على أن يدفع الضريبة ويعترف بتبعية بلدته لملك البرتغال، ولكن البوكيرك غزاها فيما بعد عام ١٥٠٨م وأحرق جميع السفن التي كانت راسية في مينائها، وقبل أن يغادر البوكيرك قلهات قبض على إحدى السفن التجارية التابعة لأهل عدن وكانت محملة بالبضائع فاستولى عليها بالقوة وضمها إلى أسطوله ولم يطلق سراحها إلا بعد أن افتداها أصحابها بالمال. ثم ذهب بعد ذلك لغزو ميناء قريات حيث أحرق بيوتها ومسجدها وقتل رجالها

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010081702225

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

ونساءها وصبيانها، وقبل أن يغادرها دمّر كل السفن الراسية في الميناء ، وكانت حوالي ٣٨ سفينة كبيرة وصغيرة. ثم توجه البوكيرك إلى مسقط لغزوها، وقد استسلم له حاكمها في أول الأمر وأقر بالتبعية لملك البرتغال ودفع الضريبة، ولكنه رفض تزويد السفن البرتغالية بالمؤونة مما أدى إلى هجوم البوكيرك على مسقط، وقتل أهلها وتشريدهم وأسرهم، وأحرق بيوتها ومساجدها ونهب أسواقها وأحرق ميناءها، وفيه أربع وثلاثون سفينة كبيرة وصغيرة، ثم غزا صحار وخور فكان. وقد بلغت السفن التي تم إحراقها من قِبل البوكيرك ورجاله في الموانئ العمانية ١٢٠ سفينة، ظناً منه أنه سيعطِّل النشاط التجاري البحري للمنطقة، ولكنه استمر بهمة أولئك الأبطال العرب فبقوا يجوبون بسفنهم الشراعية حوض المحيط الهندي.[١]

(١) الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج ، مرجع السابق ص ١٥٣- ١٧٢.

وبعد أن أحرز البرتغاليون هذا النصر على الحكام العرب راحوا يطاردون السفن العربية في المياه الإفريقية وجعلوها غير قادرة على التلصص (على حد تعبير الربان باسباع) في الخلجان الإفريقية الصغرى. وكان نصيب السفن اليمنية الجنوبية من تلك المطاردة العنيفة أكثر من نصيب السفن العمانية والكويتية والإيرانية واليمنية التهامية. فـأثر هذا التطور الهدام في حالة حضرموت الاقتصادية، وبات اليمنيون يشعرون بوطأة المحاصرة البحرية الفادحة التي فرضها عليهم الاستعمار البرتغالي.[1]

وهكذا استمر الصراع بين العرب والبرتغاليين، طوال القرن السادس عشر الميلادي، ورغم تفوق البرتغاليين على العرب بالسلاح، وقدرتهم على ملاحقة المراكب العربية وتحطيمها، وتمكنهم من السيطرة على بعض الجزر والموانئ العربية، فإنهم لم ينجحوا في إيقاف نشاط العرب الملاحي. بل إننا نجد أن العلوم البحرية عند

(١) محمد بامطرف، الشهداء السبعة، ص ٤٦-٤٧.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

العرب قد بلغت في ذلك الوقت أعلى درجة من التطور والرقي، ونبغ في فن الملاحة كثير من البحارة العرب أمثال ابن ماجد وسليمان المهري، اللذين كانا يسافران في ديرة المطلق – أي في أعالي البحار – من شبه جزيرة ملقه شرقاً إلى رأس غردفون غرباً. (١)

وعن ذلك يحدثنا الأستاذ محمد عبدالقادر بامطرف قائلاً:" وفي الفترة الواقعة بين بداية القرن السادس عشر ومنتصف القرن السابع عشر الميلاديين تعرض الملاحون اليمنيون الجنوبيون لأهوال القرصنة الغربية إبان الصراع الاستعماري بين البرتغاليين والهولنديين والإنجليز على تجارة الشرق وثرواته، بيد أن هذه الأقانيم الاستعمارية الثلاثة اتحدت كلها في وجه الأساطيل اليمنية الجنوبية التجارية فأغرقت العديد من السفن اليمنية في حوض المحيط الهندي وفي بوغاز الملايو وخاصة حول منطقة ملاقا الإسلامية. فمات غرقا العديد من الملاحين اليمنيين وضاعت كتبهم

(١) فن الملاحة عند العرب، مرجع سابق، ص ٤٩.

وسجلات أسفارهم في البحر. بل إن البرتغاليين كانوا يختطفون الملاحين اليمنيين البارزين للانتفاع بخبراتهم الملاحية وذلك ما حدث لأحد أبناء قرية الحامي كما يحدثنا بذلك المؤرخ الشحري محمد بن عمر بافقيه وهو من رجال القرن العاشر الهجري. لكن الملاحين الجنوبيين لم يتركوا المسرح البحري رغم كل العقبات التي كانت تعترض طريقهم لأن الملاحة البحرية كانت عماد تجارتهم ورزقهم ووسيلة اتصالهم بالعالم الخارجي، لذلك صمموا على البقاء في ساحة المعركة يتلقون الهزائم ويلحقونها بأعدائهم إلى أن تلاشت القرصنة في أعالي البحار واستقرت على اليابسة في شكل حكومات منظمة منها على سبيل المثال شركة الهند الشرقية التجارية البريطانية".[1]

وقد فعل البرتغاليون الأفاعيل، في احتلال تلك البلدان العربية التي عاثوا فيها فساداً وأهلكوا الحرث والنسل، لغرض الوصول

(١) الرفيق النافع على دروب منظومتي الملاح باطايع ص ١٦.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

إلى بغيتهم، من قتلٍ وحرقٍ وإغراقٍ وأسرٍ وإذلالٍ، إلا أن الملاحين العرب – من حضارمة وعمانيين وغيرهم – لم يستكينوا ويستسلموا بسهولة أمام قوتهم المتغطرسة، فقد جابهوهم وتحدوهم بسفنهم الشراعية البسيطة وسلاحهم الأبيض التقليدي ومدافعهم الصغيرة، وظلوا يجوبون البحار الشرقية في حوض المحيط الهندي غير آبهين لذلك العنت البرتغالي المدبّر، وهو ما سنبينه في المباحث الآتية من هذه الدراسة التي كتبناها لتخليد دور أولئك الأبطال المنسيين من أبناء الحامي، وغيرهم من الحضارمة الذين كانت لهم بصمات رائعة ومواقف مشرفة في مواجهة ذلك العدوان البرتغالي السافر الذي عاث فيهم فسادا وإفسادا، ولكنهم ضيقوا عليه الخناق بما أوتوه من قوة وصلابة وبتلك المقاومات الشعبية الباسلة التي شنوها ضده على الشواطئ وفي أعالي البحار والتي خلّدها لهم التاريخ على ممر العصور، وسطّرها المؤرخون في صفحاته بأحرف من نور.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

أسباب الغزو البرتغالي
على موانئ شبه الجزيرة العربية

هناك أسباب رئيسة دعت البرتغاليين إلى مهاجمة بلدان العرب والمسلمين وتخريب موانئهم البحرية نجملها في الآتي:

١. غزو المسلمين والقضاء على الإسلام ونشر المسيحية، كما تمليه عليهم تعاليم الكنيسة الكاثوليكية، وذلك بغزو الحرمين الشريفين وصرف المسلمين عن الوفود إليهما. وهذا هو السبب الرئيسي الذي جعل أولئك المحتلين يقومون بما يعرف بالكشوفات الجغرافية بقيادة كريستوفر كولمبس وفاسكو ديجاما وغيرهما واكتشاف أمريكا ورأس الرجاء الصالح -على حسب زعمهم-، وفي الحقيقة ليست تلك بكشوفات لمن عداهم من ملاحي الجزيرة العربية من حضارمة وعمانيين، فقد كانت تلك المناطق والرؤوس البحرية معروفة لديهم، ولم يقم أولئك الغربيون سوى بإطلاق أسماء أخرى عليها فقط، وقد وصل التجار والملاحون الحضارمة إلى جزر

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

أمريكا والفلبين والواق واق والجزر المعروفة بما تحت الريح قبل أن تطأها أي رجل مسيحية أو يهودية.[1]

ومما يؤيد ذلك ما قاموا به من أعمال وحشية ضد المسلمين في موانئ الخليج العربي كمسقط وقلهات وغيرها، ثم في موانئ الجنوب العربي كحضرموت وعدن من غرق وإحراق ونهب للسفن، وقتل وأسر للأبرياء من المسلمين صغاراً وكباراً أطفالاً ونساءً وشيوخاً بطرق وحشية بشعة تشمئز منها النفوس.

٢. السيطرة على التجارة البحرية في الشرق الأوسط واحتلال أهم الموانئ التجارية على حوض المحيط الهندي مثل: مسقط وسقطرى وعدن والشحر؛ لأنهم رأوا أن البضائع الشرقية مثل التوابل والافاوي، التي تصل إليهم بطريقة غير مباشرة، أسعارها باهظة، فهم يشترونها من غيرهم من الملاحين الذين يجلبونها من موانئ

(١) ينظر: علوي بن طاهرالحداد، المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى، تحقيق محمد ضياء شهاب، عالم المعرفة، جدة، ١٤٠٥هـ.

المحيط الهندي. وقد اتخذوا هذا السبب العامل الأساسي في القضاء على الإسلام.[1]

٣. التطلع إلى العلوم البحرية التي نبغ فيها البحارة العرب، حيث كان للعرب مجد عظيم في معرفة البحر ومسالكه والرياح وأوقات جريانها، وصنفوا في ذلك المصنفات ورسموا الخرائط، واخترعوا الإسطرلاب والبوصلة وقاموا بتطويرها، ولهذا طمع أولئك المحتلون أن يتعرفوا على تلك العلوم لتساعدهم في تنفيذ مخططاتهم ومؤامراتهم ضد المسلمين وتجارة الشرق، وقد انبهر الملاح فاسكو دي جاما عندما رأى بعض المقتنيات والآلات البحرية مع بعض البحارة العرب. وقد قام هنري الملاح بإنشاء مدرسة لتدريس العلوم البحرية في رأس ساجرس بالبرتغال، وجند لذلك العديد من الرجال بدعم من البابا والكنيسة التي أعطته الصلاحية لتنفيذ مؤامراتهم الصليبية في القضاء على الإسلام والمسلمين وإحلال بدله

(١) ينظر: النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري ، نوال حمزة الصيرفي ص ٧٦، الرياض ١٩٨٣م.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010081702225

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

المسيحية، وقد أكره أسرى المسلمين الذين لهم دراية بشؤون الفلك والبحر والأسفار بتدريس أولئك الرجال الملاحة والطرق البحرية. وتعلم البرتغاليون -أيضا- من العرب العلوم الملاحية بالاستعانة ببعض اليهود الجواسيس الذين طردتهم بريطانيا عام ٨٩٨هـ (١٤٩٢م) فالتجئوا إلى البرتغال آخذين معهم علوم العرب الملاحية وخرائطهم وجداولهم الفلكية.[1]

هذه هي أهم الأسباب التي جعلت ملك البرتغال يجيِّش الجيوش، ويجنِّد الجنود لغزو موانئ الهند وعمان واليمن ليصلوا إلى بغيتهم من نشر المسيحية، ومن غزو الحرمين الشريفين وإخراج جثمان النبي الطاهر ومساومة المسلمين بينه وبين كنيسة القديس في فلسطين.

(١) المرجع السابق: ص ٧٣ ، ٧٤، ٨٢، ٨٤.

الدراسات والكتب التي تحدثت عن الغزو البرتغالي على الموانئ العربية:

لقد ظهرت مؤخراً العديد من الكتب والدراسات العلمية والأكاديمية التي تحدثت عن الغزو البرتغالي ونفوذه في جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي، ومن أبرز تلك الدراسات:

١. الشهداء السبعة ضد الغزو البرتغالي على مدينة الشحر، للأستاذ المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف، صدر عن دار الحرية ، في بغداد ١٩٧٤م، ثم صدر ثانياً عن دار الهمداني ، عدن ١٩٨٣م.

٢. الصراع البرتغالي في اليمن (١٥١٧ – ١٥٣٨)، للدكتور صالح محمود رمضان، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٤٧ يوليو ١٩٨٦م.

٣. البرتغاليون في اليمن كما في المصادر العربية، للدكتور يوسف شلحد – باريس، مجلة العرب ج (٧، ٨، ٩، ١٠) س (٢٧، ٢٨) ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010081702225

٤. البرتغاليون حول سواحل جنوب بلاد العرب، للدكتور روبرت بترا سارجنت، باللغة الانجليزية ، ١٩٦٣م.

٥. الغزو البرتغالي على سواحل حضرموت، محاضرة للسيد العلامة عمر بن حامد الجيلاني ، مكة المكرمة.

٦. الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة ما بين ١٥٠٧- ١٥٢٥م، للأستاذ محمد حميد السلمان، مركز زايد للتراث والتاريخ – العين ، الإمارات العربية المتحدة.

٧. النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، نوال حمزة يوسف الصيرفي، رسالة ماجستير، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض ١٩٨٣م.

٨. ابن ماجد والبرتغال، د.أنور محمد عبدالعليم، الندوة العلمية لإحياء تراث ابن ماجد، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات ، ٩ - ١٢ يناير ١٩٨٩م.

٩. العرب والبرتغال في التاريخ، فالح حنظل، منشورات المجمع الثقافي، أبوظبي ١٩٩٧م.

١٠. صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، غسان علي محمد رمال، جدة، ١٩٨٥م.

١١. الاحتلال البرتغالي لموانئ الجزيرة العربية، عبد العزيز محمد عوض، مجلة المؤرخ العربي، العدد (٢٩) ١٩٨٦م.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010081702225

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

المبحث الثاني

أهل الحامي ودورهم في التصدي للعدوان البرتغالي على ميناء عدن

لما أراد البرتغاليون تطبيق سياستهم العدوانية الشيطانية في الاستيلاء على موانئ جنوب الجزيرة العربية واحتكار نشاطها التجاري، قاموا في عام ٩٠٣هـ باحتلال جزيرة سقطرى لعلمهم أنها تمثل مركزاً استراتيجياً في التحكم بالطريق العالمي الذي يربط بين البحر الأحمر والخليج العربي، وجرت بينهم وبين الأهالي معارك دامية حتى استولوا عليها، ثم اكتشفوا بعد ذلك أنهم لم يصيبوا الهدف وأن هناك موانئ أهم من ميناء سقطرى، ومن أبرزها ميناء عدن التاريخي الذي تفد إليه السفن من شتى أقطار العالم، ويعد مركزاً تجارياً هاماً في المنطقة تفوق أهميته على ميناء سقطرى، ففكروا حينها أن يغزوا عدناً للسيطرة على مينائها وشل حركته التجارية.

وكانت عدن من المواقع الأولى التي وجه البرتغاليون أنظارهم إليها في زحفهم الاستعماري على الخليج العربي والشرق كله. وحينما قام البوكيرك بمغامراته تأكد لديه أن سيادة البرتغال على بحر العرب والخليج العربي، وحماية المستعمرات البرتغالية في الهند وغيرها، لا يمكن ضمانها إلا بالاستيلاء على عدن. وتنفيذا لهذا القرار بعثت البرتغال في أواخر سنة ١٥٠٦م بأسطول قاده البوكيرك نفسه إلى عدن وضرب الحصار عليها. وما أن علم سكان عدن بوصول الأسطول البرتغالي حتى تحصنوا في المدينة واستعدوا للقتال، وسارعوا في الوقت ذاته إلى الاستنجاد بسلطان مصر آنذاك وهو المملوك (أشرف الدين قانصوه الغوري) الذي هب لنجدتهم مدفوعاً بحميته الإسلامية، وبالدفاع عن تجارة مصر في البحر الأحمر والتي أصبح الخطر البرتغالي يتهددها في الصميم.[1]

(١) سليم طه التكريتي، المقاومة العربية في الخليج العربي ص ٥٠.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010081702225

يقول الأستاذ حسن صالح شهاب: لقد أخطأ البرتغاليون، في تقديرهم، من أن احتلالهم لجزيرة سقطرى سيمكنهم من قطع الطريق البحري بين الهند والبحر الأحمر، وأنه بالسيطرة عليها يمكن شل حركة تجار البحر الأحمر الذين كانوا يراوغون بأعداد كبيرة من الحصار البرتغالي. لذلك جاءت أوامر لشبونة إلى البوكيرك، الذي أصبح في سنة ١٥٠٩م حاكماً عاماً للقواعد والمراكز البرتغالية على ساحل الهند الغربي، باحتلال عدن ودخول البحر الأحمر. فأقلع في سنة ١٥١٣م من جوا إلى عدن، غير أن عدن كانت وقتئذٍ قوية محصنة تحصيناً منيعاً، فلم ينجح في مهمته وعاد خائباً إلى الهند.[1]

وأول هجوم للبوكيرك على عدن كان في سنة ١٥١٢م عندما خرج بأسطول قوي من جوا المستعمرة البرتغالية متوجهاً إلى عدن بقصد الاستيلاء عليها لكنه ارتد عنها ليعاود الكرة في السنة التالية بأسطول جديد مؤلف من عشرين سفينة تحمل ألفا وسبعمائة من

(١) فن الملاحة عند العرب، مرجع سابق، ص ٤٨.

البرتغاليين، وثمانمائة من الهنود. وهنا أحسن سكان عدن تنظيم صفوفهم وتحصين مواقعهم، واستبسلوا في الدفاع عن بلادهم، الأمر الذي مكّنهم من إرغام البرتغاليين على الارتداد خاسئين.[1]

وفي عام ٩٢١هـ (١٥١٥م) جاءت مجموعة من السفن البرتغالية إلى عدن، ويتكون ذلك الأسطول من سبع وعشرين سفينة تحمل ألفاً ومئتين من المقاتلين البرتغاليين، وألفاً من المقاتلين الملاباريين الهنود المسلمين، بقيادة البرتغالي لوبو سورز، وكانت تعليماته، كما يقول المؤرخ بامعيبد في كتابه زاد الأسفار:" أن يحتل عدناً أولاً ويدمرها ويقتل قادتها وينكل بأهلها بعد ذلك، وإذا ساعدته ظروفه العسكرية والملاحية، عليه أن يتجه إلى نجدة النصارى الأحباش من تدخل الأمير محفوظ الدنكلي"، وقد وصل ذلك الأسطول البرتغالي وباغت العدنيين في صباح اليوم الرابع من شهر فبراير ١٥١٦م، وكان حاكم عدن يومئذ الأمير مرجان

(١) المقاومة العربية، مرجع سابق، ص ٥١.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

الظافري (ت ٩٢٧هـ)، وكان يتمتع بحنكة عسكرية وذكاء، فاجتمع بأعيان عدن وتشاور معهم وكان أكثرهم يرون أن يسلِّم الأمير مرجان عدن للفرنجي ويحقن الدماء. ووافقهم الأمير مرجان الذي كان يشعر بضعف مركزه ولا أحد يدري كيف تكون خاتمته؛ لأنه يعلم أن الفرنج الملاعين لا يرعون عهداً ولا ذمة ، على حد تعبير المؤرخ سعيد علي بامعيبد الذي وثق ذلك المشهد المهيب في كتابه القيِّم (زاد الأسفار في أخبار الشحر وعدن ومالابار) نقلا عن روزنامة الناخوذة معراج الدين خانجي أحد مرافقي القائد البرتغالي لوبو سورز.[1]

وعندها سلّم لهم الأمير مرجان عدناً مباشرة وأظهر لهم أنه تحت إمرتهم، ولم تكن عدن محصنة حينها تحصيناً كاملاً، ففرحوا بذلك الاستسلام الذي لم تهرق فيه حتى قطرة دم، ثم أبقوه حاكماً على عدن، وذهبوا بسفنهم إلى ميناء زيلع في مهمة عسكرية.

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٥٥، ٥٦.

وعندئذ قام الأمير مرجان الظافري بإرسال رسائله إلى جيرانه من الحكام ، طالباً منهم النجدة والمساعدة لتحصين عدن وتزويده بالرجال المقاتلين ليصدوا البرتغاليين عنها عند عودتهم لاستلامها في المرة الثانية.

ومنها وجه رسالة إلى حاكم حضرموت المقيم ببندر الشحر السلطان محمد بن عبدالله الكثيري، بوساطة سفيره الشيخ عبد الكريم ابن محمد بانافع، وهو أحد ساسة عدن المعروفين بحسن الأحدوثة، وكانت له مكانة طيبة عند السلطان الكثيري، وأمره أن يقنعه بإرسال جانب من جيشه للتمركز المؤقت في عدن حتى تستكمل القلعة إصلاح جانبها العسكري مما أصابها من الغزو المصري، ويطلب منه استعجال إرساله مدداً من الرجال والعتاد، وكانت سفن الحضارمة في تلك الفترة مسافرة في موسم شرق إفريقيا، فانتظرها حتى جاءت، ثم أرسل مندوبيه إلى ملاّك السفن ليخبرهم بذلك الأمر.[1]

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٥٤.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

ومن مندوبيه السيد حسن بن عبدالله بن علوي مكنون،[1] أرسله إلى ميناء الحامي ليجلس مع أهل الحامي ويتوسط لدى ملاّك ونواخيذ السفن الحاميّة لنقل التجهيزة وسرعة إنفاذ تلك النجدة. فعندها هب أبناء الحامي لنجدة إخوانهم العدنيين، ووافقوا على تقديم ما يستطيعونه لصد ذلك العدو الذي بدأ يكشِّر بأنيابه؛ ليكدِّر صفوهم ويحرمهم من مجال ارتزاقهم في المحيط المترامي الأطراف.

وفعلاً ففي أحد الأيام من شهر ابريل ١٥١٦م أبحرت من ميناء الحامي أربعة عشر سفينة شراعية خشبية متعددة الأحجام، محملة بالمال والسلاح والرجال إلى ميناء الشحر على أهبة الإبحار

(١) من أعيان الشحر في القرن العاشر الهجري، وهو من ذرية السيد عبدالله ابن الشيخ عبدالرحمن السقاف، أبناء عمومة آل مكنون الذين توطنوا الحامي بعد ذلك في مطلع القرن الثاني عشر الهجري، وهم من ذرية السيد علوي ابن الشيخ عبدالرحمن السقاف. وكانت وفاة السيد حسن المذكور بالشحر ليلة الخميس ٢٨ جمادى الأولى سنة ٩٥٥هـ. باسنجلة، العقد الثمين الفاخر ص٩٧.

إلى ميناء عدن، وقد تبعهم أهل الشحر وقدموا سبع سفن، وقدم أهل المهرة ست سفن، وقدم أهل صور العمانيين أربع سفن.[1]

لقد كان مقرراً أن تصل النجدة الحضرمية إلى عدن في شهر ديسمبر ١٥١٥م، أي قبل وصول القائد البرتغالي إلى عدن في شهر فبراير ١٥١٦م. بيد أن موسم السفن الحضرمية القادم من البصرة تأخر في الخليج ولم يصل إلى الشحر إلا في نهاية شهر يناير ١٥١٦م، وبعد وصول السفن ومرور بعض الوقت في تفريغ حمولتها وإجراء ترميمات وتجديدات ضرورية لها ولآلاتها، كان وكلاء السفن بالشحر قد قرروا ورتبوا سفرها إلى الهند وإلى شرق إفريقيا لنقل المهاجرين، والواقع أن أولئك الوكلاء لم يكونوا قد تلقوا إشعاراً من السلطان محمد بن عبدالله الكثيري عن عزمه استئجار سفنهم للإبحار إلى عدن؛ لأنه كان متكتماً على هذه المهمة. ورغم نجاح سفارة الشيخ بانافع لدى سلطان الشحر إلا أن تصادم الأغراض التي مرت بنا أجّلت سفر النجدة إلى عدن.

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٥٩.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

وقد تحركت تلك النجدة الحضرمية المكونة من واحد وثلاثين سفينة من السفن الحاميّة والشحريّة والمهريّة والصوريّة، إلى ميناء عدن بتاريخ ١٢ أبريل ١٥١٦م (٩٢٢هـ)، ووصلت في الثامن عشر من الشهر نفسه،[١] مظهرة قوة التلاحم العربي الحميم، والنجدة والشهامة التي اتصف بها أولئك الملاحون الشجعان.

وفي تلك المنقبة العظيمة التي نال بها أبناء الحامي قصب السبق في نقل النجدة إلى ميناء عدن يقول الشاعر الشعبي عوض عبيد بن حمدون (ت ٢٠٠٤م) من قصيدة له:[٢]

ومن سعاد الشحر نقلوا الجند إلى ميناء عدن

لما غزاها البرتغالي جا بأسطوله اللئيم

وهناك زادوهم بني يافع وحد جا من بِيَنْ

دحروا عدو الله وجنوده سقوهم سين ميم

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٥٨-٥٩.

(٢) محمد باهارون، شعراء من حضرموت ، بحث غير منشور.

ويؤكد الأستاذ بامطرف أن من أهم الأسباب التي مكّنت الأمير مرجان الظافري في الامتناع عن تسليم عدن هي:

١. تجنيد الأمير مرجان عدة مئات من رجال القبائل للدفاع عن عدن.

٢. إكمال ترميم تحصينات عدن الدفاعية وخاصة حصون جبل صيرة وحصون جبل حقات.

٣. وصول النجدة الحضرمية العسكرية إلى عدن، وكانت مكونة من ألف مقاتل من الحضارمة والحموم والمهرة.

٤. وأهم من ذلك، أن الأمير مرجان استطاع باقتداره الإداري استيعاب المدد المحلي والعون الخارجي وتنظيمهما أبدع تنظيم والاستفادة منهما.[1]

ولقد جدد البرتغاليون محاولتهم لاحتلال عدن كرة أخرى في سنة ١٥١٧م، فلقد عاد الأسطول البرتغالي إلى دخول البحر الأحمر ومحاصرة ميناء جدة، لكنه ما فتئ أن ارتد عنها إلى ميناء الحديدة،

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٥٨.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

فجزيرة كمران ومضيق باب المندب لكي يطبق بعد ذلك على عدن التي حاصرها لعدة أيام دون أن يستطيع منها منالاً، وهكذا فشلت كل هذه الحملات البرتغالية لاحتلال عدن.[1]

وكانت آخر محاولة للبرتغاليين لاحتلال عدن في سنة ٩٥٤هـ (١٥٤٧م) حينما استولى عليها الشيخ علي بن سليمان الطولقي، صاحب خنفر، وطرد منها الحامية التركية. فقد أرسلوا أسطولاً كبيرًا بحجة مساعدة الطولقي ضد الأتراك، غير أن هؤلاء استعادوا السيطرة على عدن في الوقت الذي كانت قطع من الأسطول البرتغالي قد وصلت إلى بعض المراسي المجاورة لعدن.[2]

يقول المؤرخ بافقيه في حوادث السنة المذكورة: وفيها يوم الثالث والعشرين من جمادى الأولى أخذ علي بن سليمان التولقي عدن من الاروام، وسبب أخذها أن الأروام طلعوا من زبيد وعدن إلى صنعاء مع الباشا أويس لأخذ صنعاء ولم يتبق في عدن رتبة إلا قليل

(١) المقاومة العربية، مرجع سابق،ص ٥١.

(٢) فن الملاحة، مرجع سابق، ص ٤٨.

من الاروام، فلما علم بذلك طلع عليهم من جبل الخضراء ولم تدر الأروام إلا بالتكبير فيها والقتل فيهم، فانحاز منهم مائة رومي إلى حسن اغتهم، فطلبوا الأمان فأمنهم علي بن سليمان، وسيرهم في غراب لأهل منيبار إلى الشحر.. وفي يوم السبت ثامن وعشرين رمضان ، وصل غرابان إفرنج إلى بندر الشحر من هرموز برسالة لصاحب عدن علي بن سليمان، ومعهم هدية ومهاترة،وكتب إليه، وسيأتي أخذها في السنة التي بعدها.[1]

لقد رجع البرتغاليون بعد تلك الهزائم القاسية التي تلقوها إلى قراصنة خطرين يغيرون على الموانئ العربية لنهبها وإحراقها، وإغراق السفن في أعالي البحار وفي الموانئ ويأسرون بحارتها ويبيعونهم أرقاء، يساعدهم في تلك الأعمال الشريرة السلاح الجديد الفتاك الذي يمتلكونه وهو البندقية النارية، ومن الموانئ التي تعرضت لغاراتهم الحديدة والمخا وبروم والمكلا والشحر والحامي.[2]

(١) تاريخ حوادث السنين ووفاة العلماء العاملين، ص ٢٧٣، ٢٧٤.

(٢) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٥٩، ٦٠.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

المبحث الثالث

الغزو البرتغالي الغاشم على ميناء وساحل الحامي

لقد نما إلى أسماع البرتغاليين، بوساطة جواسيسهم المنتشرين في موانئ الشحر وعدن، بأن بحارة الحامي كانوا في طليعة من نقل النجدة الحضرمية من ميناء الشحر إلى ميناء عدن على متن سفنهم الشراعية الخشبية، عندما استنجد بهم حاكمها الظافري.

فلذلك جعلوا من الحامي هدفهم الأول قبل ميناء الشحر؛ لأنهم عرفوا أنها المركز الرئيسي الذي يموِّن ميناء الشحر بالملاحين الأكفاء والبحارة الأقوياء والسفن التجارية، ولذا يصف حال ذلك العدو البرتغالي شاعر الحامي عوض عبيد بن حمدون قائلاً:[1]

وراح يتخبّر على اللي جاب أهـل الشـحر مَـنْ
قالوا له: الحامي بها أسطول في المرسى عظيم
وجاء إلى المرسى وأشعل في الزعيمة والبـدن
وعدّها ضـربه في الحـامي قويّـه في الصـميم

(١) شعراء من حضرموت، مرجع سابق.

لقد كان ساحل الحامي يعرف عبر التاريخ بأنه منطقة زراعية خصبة تعرف باسم (الظاهرة)، وتوجد فيها العيون المعدنية والآبار والمزارع التي تصل إلى محاذاة ساحل البحر، ولا تزال آثار بعض القنوات متجيرة إلى وقت قريب وأثرها موجود بقرب البيوت المبنية على الساحل، وقد أشار إلى تلك المنطقة العلاّمة المؤرخ مسعود بن سعد باشكيل (المتوفى سنة ٨٣٨هـ) في تاريخه، وعنه نقل المؤرخ الطيب ابن عبدالله بامخرمة (المتوفى سنة ٩٤٧هـ) في كتابه (النسبة إلى المواضع والبلدان) حيث قال: "الظاهري: نسبة إلى الظاهرة موضع شرقي الشحر على ساحل البحر الهندي وفيه عيون جارية، ويزرع عليها الحبوب، الذرة والدقّة، والدخن الأصفر".[1]

وكان الأهالي يقطنون في الموقع المسمى اليوم بالبلاد الفوقية، ويعرف سابقاً بالحامي، والذي يبعد بحوالي ميلين عن الساحل، محاطاً بمجموعة من الهضاب والمرتفعات الجبلية، وهي منطقة

(١) النسبة إلى المواقع والبلدان، ص٤٦٤.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010081702225

الحامي المذكورة في كتب التاريخ والتي حدثت فيها بعض الوقائع التاريخية في القرن العاشر الهجري، يقول عنها المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف: "إن الحامي التي يعنيها - أي الملاّح باطايع في منظومته الملاحية عام ١٢٢٠هـ - ليست حامي اليوم ولكنها الحامي التي تعرف اليوم بالبلاد الفوقية وكانت تحميها التلال من كل جانب فلا ترى للبحارة من البحر. وإحاطة التلال بها جنّبها عدوان القراصنة البرتغاليين إذ كانت التعليمات التي يحملها أولئك القراصنة تقضي بأن لا يتوغلوا داخل البر العربي وأن يقصروا هجماتهم على المدن والقرى الساحلية. لذلك كان أهالي الشحر يفرِّون من الشحر إلى قرية تباله الواقعة على بعد سبعة أميال إلى شمال الشحر، وكان أهالي بندر بروم يفرِّون إلى قرية الهجلة عندما يداهمهم البرتغاليون. أما قرية الحامي الحالية فكانت تعرف على عهد باطايع باسم الظهار [الظاهرة] أي القاع الساحلي، وكانت السفن تقف في هذا الظهار لتمزر أي لتأخذ حاجتها من ماء الشرب. لذلك فإننا سنجد مكتوباً عن الحامي الظهار في سجلات

ملاحي الخليج أنها ممزر. وكلمة (ممزر) كلمة حضرمية وهي مصدر للفعل المحلي(مزر) أي استقى ولفعل مزر معنى فصيح وهو أن تشرب قليلاً من اللبن."[1].

ويقول بدر أحمد الكسادي متحدثاً عن أبناء بلدته الحامي وما عرفوا به من تفوق ملاحي وفلكي، وما تعرضوا له في تلك الفترة العصيبة، بأنهم رجال بحر موهوبون، خبراء بالنجوم وبمسالك الملاحة الساحلية، وفي أعالي البحار، وهم أهل دراية بالبحر وعواصفه وأنوائه وتقلباته وأحواله، خبراء بالقياسات الفلكية. وكانوا مهيمنين على النقل التجاري والملاحة في كل تلك البلاد منذ قرون عديدة، وكان أغلب التجار يثقون في ربابنة سفن الحامي، وكانوا يتمتعون بمكانة خاصة لدى عمال الجمارك، سواء أكانوا في الهند أم في أفريقيا، أم في البلاد العربية. وكانت لهم تجارة بحرية بالهند وبساحل إفريقيا الشرقي، وهذا يدل على المستوى العالي الذي اشتهر به أهالي الحامي في الملاحة البحرية، وكانوا يغامرون بسفنهم

(١) الرفيق النافع، مرجع سابق، ص٦٩-٧٠.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010081702225

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

الشراعية في وجه دمار محقق في سبيل العيش، ولعل أسوأ فترة مرت بملاحي هذه القرية هي الفترة الواقعة بين بداية القرن العاشر الهجري ونهايته، عندما كان القراصنة البرتغاليون خلال فترة التوسع البرتغالي الاستعماري ينهبون محتويات سفنهم أو يغرقونها أو يخطفونها، أو يأسرون بحارتها ونواخيذها وربابنتها، أو يحرقونهم أحياء كل ذلك كان يحدث لهم في أعالي البحار، وفي كل موسم بحري كانت عشرات السفن من سفنهم تمخر عباب البحار إلى غير رجعة، فيضمد الباقون جراح قلوبهم الدامية، ويخاطرون بدورهم وكأنهم لم يكونوا متجولين في فم الهلاك. كل ذلك البلاء المحيق بهم لم يقعدهم عن وسيلة كسب عيشهم، وظلوا يصبرون ويصابرون، ويقاتلون القراصنة، ويجالدون العناصر الطبيعية العاتية، حتى انتصروا، وعاد طريقهم البحري آمنا، اللهم إلا مما تأتي به القوة القاهرة التي لا يملك أحد منها المفر.[1]

(١) أبطال منسيون من ربابنة الملاحة البحرية العربية ص ٩-١٠.

لقد وضع البرتغاليون في استراتيجيتهم شل حركة ميناء الحامي ليسهل عليهم الاستيلاء على ميناء الشحر ثم ميناء عدن، كما يحدثنا الأستاذ بامطرف قائلاً: كانت استراتيجيتهم لغزو عدن تقتضي، حسب نظرهم، عزل تلك القلعة اليمنية عزلاً تاماً، ولو أنه غير مباشر، عن روافدها، وأهم تلك الروافد كانت، في حسابهم، مدينة الشحر. ولكي يتسنى لهم عزل عدن عن الشحر، وضع البرتغاليون مخططاً يرمي إلى القيام بسلسلة من الغارات الانتقامية تحطم، أولاً وقبل كل شيء، إمكانيات الشحر المالية والبشرية بأن تجعل هذا الميناء اليمني وما جاوره من القرى الحضرمية الساحلية وفي مقدمتها ميناء خلف (المكلا) الذي يمد الشحر بالسلع الصومالية، وميناء بروم ملاذ السفن الحضرمية عند اشتداد الرياح الموسمية، وقرية الحامي التي كانت تمد الأسطول التجاري الحضرمي بأحسن ملاحيه وبحارته، بأن تجعل هذه النقاط الأربع في حالة شلل كامل.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010081702225

وتنفيذاً لهذا المخطط العدواني الاستعماري الرهيب على عدن وبروم والمكلا والشحر والحامي، تقرر القيام أولاً بغارة انتقامية على مدينة الشحر تحت أي سبب من الأسباب حقيقياً كان أم خيالياً.[1]

بالإضافة إلى ذلك فإن أهالي الحامي كانوا يمتلكون أسطولاً بحرياً فريداً في جنوب الجزيرة العربية يصل إلى أكثر من مئتي سفينة، ويسيّرونها بأنفسهم، وتشكّل هذه السفن عماد البلاد التجاري والاقتصادي بالنسبة إلى الجنوب اليمني، وبحارة هذا الأسطول وربابنته هم أقوى بحارة معترف بهم من الناحية الملاحية والفنية والإدارية، كما كان تجار الشحر يعتمدون اعتماداً كلياً على سفن الحامي وربابنتها في المواصلات التجارية للاستيراد والتصدير.[2]

كما أن حكّام الشحر يعتمدون اعتماداً قوياً على سفن الحامي وربابنتها في تحركاتهم وتنقلاتهم العسكرية عندما تدعو الحاجة لذلك، فقد استعان بهم السلطان محمد بن عبدالله الكثيري في نقل

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٦٦.

(٢) أبطال منسيون مرجع سابق، ص ٦٨.

النجدة إلى عدن كما تقدم ذكره، وكذلك قبله السلطان محمد بن سعيد بن مبارك بن فارس أبي دجانة الكندي حاكم الشحر منذ عام ٨٣٦هـ عندما قاد حملته العسكرية للاستيلاء على عدن من آل طاهر والتي باءت بالفشل في عام ٨٦١هـ، فقد استعان بما يقارب عشر سفن من أسطول الحامي،(١) ويبدو أن الأهالي حينها لم يوافقوه على حملته الفاشلة تلك وإنما فرض مشاركتهم بقوة الحكم والسلطان.

وكانت السفن البرتغالية التجارية عندما ترد على موانئ جنوب الجزيرة العربية محملة بالبضائع من الهند وشرق إفريقيا لبيعها وتصريفها في مدينة الشحر للتجار هناك، كانوا في الوقت نفسه يراقبون تحركات ذلك الأسطول التجاري، أسطول الحامي؛ وذلك لمنافسته لهم ولأسطولهم وتجارتهم، ومن هنا بدأت أحقادهم تتزايد على سفن الحامي وربابنتها؛ لما لهم من خبرة ملاحية، وهيمنة على النقل التجاري والملاحة البحرية منذ قرون عديدة.

(١) انظر: الشهداء السبعة ص ٢٧، وأبطال منسيون ص ٦٩-٧٠، مرجعان سابقان.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

هذه العوامل والأسباب كلها جعلت البرتغاليين يرقبون تحركات سفن الحامي، لأنهم عرفوا تماماً أن سفن الحامي أصبحت هي الأسطول التجاري والعسكري – في الوقت نفسه – في حضرموت، من ناحية الكثرة والخبرة الملاحية.[1]

في مطلع شهر فبراير ١٥٢٣هـ تحرك من ميناء جوه بالهند أسطول برتغالي مكون من تسع سفن تحمل سبعمائة من المقاتلين البرتغاليين والملاباريين تحت قيادة لويز دي منزيس وبالقرب من جزيرة عبدالكوري فَقَدَ سفينتين من سفنه التسع وبقيَت ست سفن، ولما دخلوا مياه خليج عدن وحاذوا ميناء الحامي في مساء يوم الأربعاء الثامن من شهر ربيع الثاني سنة ٩٢٩هـ الموافق ٢٦ فبراير ١٥٢٣م، أرسوا بسفنهم على الساحل في منتصف الليل، وعاثوا فيه فساداً وقاموا بإحراق مجموعة من السفن الشراعية الراسية في الميناء يقدرها بعضهم بخمس سفن، وربما أكثر، وألحقوا أضراراً بالغة

(١) أبطال منسيون، مرجع سابق، ص ٧٠-٧١.

بمحاصيله الزراعية،[1] ويبدو أن سفن الحامي كانت مسافرة في رحلاتها التجارية، ثم خرجوا إلى الساحل برجالهم وقاموا بحرق المزارع وأشجار النخيل وردموا بعض الآبار والعيون المنتشرة على الساحل بالحجارة، والتي كانت تشكل مركزاً هاماً لتزويد السفن التجارية العربية العمانية والكويتية وغيرها المارة بالماء والوقود.

وقد سلمت البلدة وسكانها من عنتهم وغيظهم، ويضيف الأستاذ بامطرف قائلاً: إن القائد البرتغالي لوبو سورز أراد أن يجعل من هذه السياسة المروعة بديلاً مؤقتاً لاحتلال عدن.. ومع ذلك كانت سياسة سورز تمنع البرتغاليين من التوغل في البر العربي لكيلا يخلقوا المضاعفات التي لا تطاق لقيادته البحرية، ولذلك ركّز القراصنة البرتغاليون على المدن والقرى الساحلية العربية... ومن هنا سلمت قرية الحامي (البلاد الفوقية) من العنت البرتغالي ولم تتعرض إلا منطقة الظهار [الظاهرة] الساحلية (الحامي الحالية)،

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٦٦.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

فكان الغزاة البرتغاليون يحرقون مزارعها ويلوثون مصادر ماء الشرب بها ويعقرون مواشيها.[1]

وقد فعلوا تلك الأفاعيل ليغيظوا أهالي الميناء القاطنين في منطقتهم الحامي، بدافع من الحقد الدفين الذي يحملوه في قلوبهم على أبناء الحامي لمواقفهم النبيلة تجاه إخوانهم في عدن وغيرها، والوقوف إلى جانبهم ومساندتهم بالعتاد والرجال، وهكذا الحقد يفعل بأصحابه، وإن الحسود لا يسود مهما أوتي من قوة وجاه ومال ورجال. لقد دفع أبناء الحامي الثمن غالياً على شهامتهم الحضرمية ونجدتهم الفتية.

يقول الدكتور روبرت سارجنت في كتابه (البرتغاليون حول سواحل جنوب بلاد العرب): إن الأماكن التي حصلت الاشتباكات فيها بين العرب والبرتغال ليست غريبة من بير علي إلى الحامي، فقد سافرت إليها في رحلاتي البحثية، على جمل وعلى الأقدام وأحياناً على شاحنة، في جمع المواد عن أسماء الأسماك والعادات والتقاليد

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٦٠.

البحرية. وقد هوجمت الحامي بتكرار من قبل البرتغاليين، ولعل موقعها الاستراتيجي هو السبب لذلك الغزو الآثم.[1]

ويقول الباحثان الغربيان ادوارد برادوس وديفيد واربورتون في مقالهما المنشور بمجلة التاريخ البحري في أمريكا بعنوان: (الحامي تحفظ ماضيها البحري) مشيدين بدورها الملاحي الحضاري:

"وحتى بعد تدشين التجارة الأوربية إلى الهند ظل دور الحامي مستمراً على نحو فاعل، وعلى الرغم من أن البرتغاليين قد حاولوا إخضاع شواطئ شبه الجزيرة العربية بما في ذلك عدن والشحر؛ إلا أن الحامي "القديمة" قد بقيت بعيداً عن متناول تأثير البرتغاليين ومدافعهم. حتى اليوم فإن رقصة الزفاف التقليدية في المدينة تسترجع ذكرى تصدي المدينة للهجوم البرتغالي منذ ما يقرب من الخمسمائة عام".[2]

---

(1)R.B.serjeant theporuguese of the SouthArabian Coast, libraire du liban Beirut , 1963, p.28.

ترجمة: أ. أبوبكر أحمد مكنون .

(٢) محمد علوي باهارون، ميناء الحامي في عيون الباحثين والمؤرخين العرب والأجانب، ص ٣٨، الطبعة الأولى، دار الحامي للدراسات والنشر ٢٠١٦م.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

لقد أدّت الحامي وأهلها، في فترة الغزو البرتغالي على موانئ جنوب الجزيرة العربية، أدواراً رائعة تستحق أن تكتب بماء الذهب على صفحات التاريخ، وإن كانت كتب التاريخ قد غمطت أولئك الأشخاص والأبطال البواسل حقهم من الثناء اللائق بهم ومن ذكر أسمائهم، إلا أنها أشادت بدورهم الجهادي والإنساني الذي قدموه، ولقد سقط الكثير منهم في ساحات الشرف وهم يقاتلون جنباً إلى جنب مع إخوتهم المواطنين، ولذلك أصبحوا، عن جدارة، رمزاً للبطولة المثالية والقيادة الرشيدة والاستشهاد الحق في سبيل الواجب.

لقد جادوا بالموجود، ولم يكن أسهل عليهم من الجود بأرواحهم فقدموها رخيصة، وإن ذلك من عزم الأمور، ولقد كانت همتهم أجل من جلائل الأعمال وأشد من الشدائد، ولذلك صارعوا المنايا في مواجهة البرتغاليين في البر وأعالي البحار.. رحمهم الله رحمة واسعة وأثابهم بقدر ما أغنوا التجارب الإنسانية العظيمة التي يوفقها الله إلى السؤدد فتبلغ المرتقى السامي في سجلات الخلود.[1]

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٧٩، ٨٠.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

المبحث الرابع

مساندة أهل الحامي إخوانهم الحضارمة في صد العدوان البرتغالي على ميناء الشحر

بعد أن أشبع البرتغاليون غيظهم في سفن ومزارع وعيون الحامي، تحركت سفنهم إلى ميناء الشحر مبيتين النية على غزوه والاستيلاء على مركزه التجاري الهام الذي يشكله، ففي صباح يوم الخميس ٩ ربيع الثاني سنة ٩٢٩هـ الموافق ٢٧ فبراير ١٥٢٣م ألقى الأسطول البرتغالي المعتدي مراسيه في ميناء الشحر.

وكان أهل الحامي على دراية بأولئك المحتلين وما يشكلونه من خطر على بلدانهم، ولكنهم كانوا غير متكافئين في السلاح، فأرسلوا بريداً مع بزوغ الفجر إلى ميناء الشحر يحمل إنذاراً بالكارثة المرتقبة على الميناء من أولئك البغاة، وكان حاكمها الأمير مطران بن منصور، قائماً مقام السلطان بدر بن عبدالله الكثيري الذي لم يكن حينها موجوداً بالشحر مع جنوده وحاشيته.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

وفي الصباح جمع الأمير مطران جماعة من أعيان الشحر، وكانوا خليطاً من الفقهاء والتجار والحرفيين ومقادمة حارات المدينة فأطلعهم على رسالة القائد البرتغالي ومضمونها أن تاجراً برتغالياً اسمه (الفونسو دي فيجا) مات في الشحر منذ خمسة أشهر وأن السلطان بدر استولى على أمواله، وأن قائد الأسطول يطلب تسليم تلك الأموال إليه بدون تأخير، وأطلعهم على رده الذي بعث به إلى القائد البرتغالي ومضمونه أنه لا يعلم شيئاً عما جاء في الرسالة، وطمأنه بأن السلطان بدر في زيارة قصيرة لوادي حضرموت وسيصل في غضون أيام قلائل إلى الشحر، كما أخبرهم أنه تلقى صباح هذا اليوم بلاغاً من الحامي عما أحدثه البرتغاليون من أضرار بالسفن الراسية بها وبالمزارع الساحلية هناك. فعندها أدرك المجتمعون أن البرتغاليين يضمرون شراً للشحر وأهلها، لا سيما وأن الحاضرين من أهل الشحر لم يكن بينهم من سمع بحكاية البرتغالي المتوفى أوبأن السلطان بدراً استولى على مخلفاته، وأن تلك مكيدة دبرها البرتغاليون لاستباحة غزو الشحر، وتقرر في الاجتماع

أن يرحّل الأهالي نساءهم وأطفالهم وممتلكاتهم الثمينة التي يسهل نقلها إلى قرية تبالة المجاورة للشحر والاستعداد لأي نداء يصدره الأمير مطران.[1]

وكان من جملة ما قرروه أن استعدوا لمنازلة البرتغاليين مهما كلفهم الأمر، وبعثوا برسالة مستعجلة للسلطان بدر أحاطوه فيها علما بالموقف، كما وجهوا رسالة أخرى للأمير عطيف بن علي بن دحدح ، قائد منطقة المشقاص، بطلب النجدة العسكرية السريعة لأن حامية الشحر كانت قد ذهبت إلى حضرموت الداخل بصحبة السلطان بدر ولم يبق من الجند بالشحر إلا بعض المسنِّين حراساً على بعض المؤسسات الرسمية.

وفي بكرة يوم الجمعة العاشر من شهر ربيع الثاني سنة ٩٢٩هـ (١٥٢٣م) نزل إلى الشحر سبعمائة من المقاتلين البرتغاليين والهنود ومعهم كل ما استطاعوا توفيره لأنفسهم من آلات التدمير والقتل،

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٦٨، ٦٩.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010081702225

وابتدءوا يطلقون النار على كل من يصادفونه، ويضرمون النار في المنازل والمستودعات والأكواخ، وامتدت أيديهم بالنهب إلى المحلات التجارية. ودارت معارك في الشحر ثلاثة أيام متوالية استشهد فيها المئات من أبناء الشحر وكان من ضمنهم قادة المقاومة السبعة وهم:

١. الفقيه العلامة يعقوب بن صالح الحريضي.
٢. الفقيه الشيخ أحمد بن عبدالله بلحاج بافضل.
٣. الشيخ سالم بن صالح باعوين.
٤. الشيخ حسين بن عبدالله الجمحي الملقب بالعيدروس.
٥. الشيخ أحمد بن رضوان بافضل.
٦. الشيخ فضل بن رضوان بافضل.
٧. الأمير مطران بن منصور حاكم مدينة الشحر.

وقد دفن ستة منهم في قبر واحد بالشحر يعرف إلى اليوم باسم (قبر الشهداء السبعة). أما الشهيد السابع فهو الشيخ أحمد بن عبدالله بافضل فقد دفن في قبة والده الشيخ الفقيه عبدالله بلحاج بافضل.

وفي صباح ثالث أيام المعركة - أي الأحد الثاني عشر من ربيع الثاني – جاء جيش من المشقاص بقيادة عطيف بن دحدح لنجدة أهل الشحر فلاذ البرتغاليون بالفرار في سفنهم.[1]

يقول المؤرخ سالم عوض باسباع الشحري، وهو أحد المعاصرين للغزو البرتغالي على الشحر وأول من كتب عنه من مؤرخي العرب، معلقاً على تلك المعركة بلهجته الدارجة:" هدت الناس يد وحده وبعضهم ما يملك في السارحة رائحة ولكنهم أخوة، كل واحد يشوف دار الثاني داره والعار عاره والخو خوه، وإذا شافوا جماعة من البردجيز الملاعين حملوا عليهم وذي يسقط يسقط وذي يقوم يقوم. والمصاويب يسحبونهم من كل حافة ... والمشايخ قدام ما حد خفي رأسه ولا حد قصّر كل واحد بغى هو الأولي ونسمع صياح الناس من العقل ومن مطراق حنين مثل موج الخريف ويطردون الملاعين البردجيز ومن لافوه راح عشاء إبليس

(١) بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت العام ص ٨٥-٨٦، والشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٧٠- ٧٥.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022 5

أخذلهم الله، والمقاتيل مزقّلين فوق المقابر وفي المضاييق والمولى نصر الإسلام... رجال شجعان مثل الأسود اختلط دمهم ولحمهم في المضاييق واختلطت الوجيه النويرة بالتراب ولعاد اعترف زيد من عبيد لكن الرواح الطاهرة ارتفعت إلى عليين... لكنهم برّدوا أكبادنا .. وهذا الجاري لنا به فخر، والرجال ما خلقت إلا لأجل تموت على الشرف". [1]

ويقول المؤرخ السيد محمد عبدالرحمن بن شهاب: "كان البرتغال قد أخذوا يهاجمون السواحل الحضرمية في أوائل القرن العاشر، وكانت أساطيلهم تمخر البحر من سواحل الهند إلى سواحل أفريقية إلى ساحل حضرموت. وهذا البحر هو مضطرب الحضرمي فكانت سفن الحضارمة والمهرة كثيراً ما تصادفها سفن البرتغال ويقوم بينهم القتال الشديد، فتمرّن الحضارمة على قتال البحر، وإذا أنذر أهل الشحر(ساحل حضرموت) بأساطيل البرتغال أرسلوا الصريخ إلى داخلية البلاد، فكان أهل الفقه والعلم يتسابقون للقيام

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٧٨، ٧٩.

بفريضة الجهاد وتتبعهم العامة، فتجتمع منهم الجموع هناك ترابط حتى تنصرف أساطيل العدو. وفي شجرات أنساب العلويين ذكر عدد منهم ممن أسرهم الإفرنج أو قتلوهم في البحر فحازوا مرتبة الشهادة العلية. وقد زاد في حمية الحضارمة القتال القائم ببر سعد الدين والحبشة وفيه كثير منهم، وكانت أخباره ترد تباعاً إلى حضرموت حتى كان السيد محمد بن الطيب بافقيه العلوي الشحري يأتي بها مشروحة يوماً فيوماً في تاريخه".[1]

ويقول الأستاذ محمد بن هاشم:" كانت دولة البرتغال ترنو إلى سواحل جزيرة العرب الجنوبية وتؤمل امتلاكها حتى تصيرها حلقة مفرغة في سلسلة مستعمراتها. وكانت الأراجيف عنهم منتشرة في الأقطار الحضرمية والقيل والقال عنهم قد ملأ الخافقين، وكان المسافرون الواردون من البحر كثيرا ما يقولون أنهم شاهدوا سفائن حربية إفرنجية تتجول في مياه السواحل العربية. وفي صبيحة ذات يوم أقبلت سنابيك صيد السمك من عرض البحر

(١) بيانات عن الحضارمة، حاضر العالم الإسلامي ص ١٧٠.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010081702225

مذعورة بأنها رأت عدداً من المراكب الغريبة مقبلة نحو البلد، وسرعان ما انتشر هذا الخبر المشئوم في الشحر فأقبل الناس يهرعون نحو السِيف (الميناء) وصعد النساء والكسالى على سطوح البيوت لينظروا ما ذكر، وما لبثت السفائن أن تراءت للملأ متجهة نحو الشاطئ يبلغ عددها أربع عشرة سفينة، فألقت مراسيها، فكان ذلك صبيحة يوم الخميس لتسع خلت من ربيع الثاني سنة ٩٢٩هـ ولم يبلغنا نزول أحد منها ذلك اليوم ولا الليلة التي تلته ولا طلع إليها أحد، ولكن لم يشعر أهل البلد عند فجر الجمعة إلا بالضوضاء والرطانة المزعجة تحت البيوت وفي الأزقة والطرقات، وارتفع الضجيج وعلا صراخ الصارخين بالقتل، وإذا بالإفرنج يتسورون الديار وينهبونها وإذا بهم يحرقون ويخربون، وتصدى الناس لقتالهم واستحر القتل في الفريقين وقتل من أعيان الشحر جماعة .."[1].

ويقول الأستاذ سعيد عوض باوزير متحدثاً عن الأطماع البرتغالية: "كانت أمة البرتغال الفرنجية تفكر في احتلال سواحل

(١) تاريخ الدولة الكثيرية، ص ٦٤، ٦٥.

جزيرة العرب لتأمين مواصلاتهم إلى الشرق، لذلك هاجمت موانئ عدن وقشن وسيحوت وغيرها، وفي ربيع الآخر من سنة ٩٢٩هـ هاجموا مدينة الشحر بأربع عشرة سفينة وأخذوا يتسورون البيوت وينهبون ويحرقون ويخربون، وقد تصدى الناس في الشحر لقتلهم فدارت معارك حامية في شوارع المدينة وكثر القتل في الفريقين، وقتل من أعيان الشحر جماعة منهم الأمير مطران بن منصور والإمام العلامة أحمد بن عبدالله بلحاج بافضل وأحمد وفضل أبناء رضوان بافضل والفقيه يعقوب بن صالح الحريضي، وخلق كثير ودفن سبعة من الشهداء في موضع واحد لا تزال قبورهم معروفة إلى اليوم في حارة عقل باغريب. واستمر القتال في المدينة من يوم الجمعة إلى يوم الأحد حيث اضطر البرتغاليون إلى الانسحاب إلى سفنهم ليلة الاثنين، فضربوا عرض البحر متجهين نحو الهند، وتكررت محاولاتهم بعد ذلك لمهاجمة الشحر ولكنهم لم يظفروا بطائل".[1]

(١) صفحات من التاريخ الحضرمي، ص ١٢٤-١٢٥.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

ويذكر الأستاذ بامطرف نقلاً عن الربان باسباع أن الذين قتلوا من أهالي الشحر في هذه الحادثة سبعمائة وأحد عشر رجلاً بينهم ثمانية وخمسون من الصومال والهنودكيين، والذين قتلوا من الغرباء - لعله يقصد بهم أهل وادي حضرموت - كان عددهم مائتين وستة عشر رجلا. وعدد المنازل التي تهدمت من الحرائق ثلاثمائة وعشرون داراً وكوخاً، والحوانيت التي أحرقت ونهبت عددها سبعمائة وأربعون حانوتاً .. وأحرقت اثنتان وثلاثون معصرة زيت بعضها أحرق مع الإبل العاملة فيها.[1]

لقد هب أبناء الحامي بما يملكون من استطاعة وقوة لنجدة إخوانهم الشحريين، كيف وقد نقلوا النجدة إلى عدن وضحوا بما لديهم من أجل إعلاء شرف الوطن، فمن باب أولى أن تكون لهم نجدة كبرى لجيرانهم من أبناء جلدتهم في سوقهم التجاري الرئيسي، وللأسف الشديد أن كتب التاريخ لم تفصح عن أسماء من شاركوا

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٧٩.

في تلك النجدة الفتية، إلا أن الروايات المحلية تواترت على توثيق ذلك عبر خمسة قرون، وتذكر أنهم أسرعوا التحرك إلى ميناء الشحر على أثر السفن البرتغالية التي داهمت الحامي، ولما وصلوا إلى ميناء الشحر غاص منهم جماعة من الشباب الأبطال وقاموا بقلع وقطع مراسي بعض السفن البرتغالية، وشاركوا في المعركة الحامية التي دامت لمدة ثلاثة أيام، استشهد فيها جماعة منهم ضمن من استشهد من الحضارمة والهنود والصومال وغيرهم.

وهناك شخصية حاميّة فريدة ذكرت في كتب التاريخ الحضرمي، وهي شخصية العلامة الفقيه الشيخ أحمد بن محمد السبتي، الذي كان إماماً وخطيباً لجامع الشحر في أثناء الغزو البرتغالي، تولى الإمامة والخطابة سنة ٩١٩هـ، وهو أول من ذكر السلطان بدر أبي طويرق في خطبة الجمعة بالشحر في شهر ربيع الثاني سنة ٩٢٧هـ عندما تنازل له أخوه السلطان محمد عن حكم حضرموت، وكتب إلى الخطيب السبتي المذكور بأنه خلع الولاية لأخيه السلطان بدر وأمره أن يُسقط اسمه من الخطبة وأن يخطب للسلطان بدر، وكانت وفاة

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

الشيخ أحمد السبتي بالحامي سنة ٩٤٧هـ.[١] ومما لاشك فيه أنه كان له دور كبير في بث روح الجهاد والتضحية في نفوس أبناء بلدته الحامي في مواجهة أولئك الغزاة الطامعين، والتصدي لهم ولمخططاتهم العدوانية الخبيثة في القضاء على الإسلام وأهله.

يقول الباحث السويسري ديفيد واربورتون مشيداً بدور الحامي في التصدي لغزو البرتغاليين للشحر في مقاليه (المدينة ذات النكهة التاريخية، والتجارة الحضرمية والإمبراطورية البريطانية):[٢]

ـ لقد ورد ذكر الحامي في السجلات العربية القديمة ودور أهلها في مقاومة البرتغاليين قبل خمسمائة عام تقريباً، ونصرتهم لإخوانهم في الشحر، وشهرتهم في ألعاب الزواج ورقصاته، واشتغالهم بالتجارة البحرية منذ ما قبل الإسلام.

---

(١) انظر: العقد الثمين الفاخر ص ٣٩، وتاريخ حوادث السنين ص ١٣٠، والشهداء السبعة ص ٣٩، ٩٧، مراجع سابقة.

(٢) ميناء الحامي في عيون الباحثين والمؤرخين العرب والأجانب، مرجع سابق، ص ٥٣، ٦٣.

ـ وعندما هاجم البرتغاليون لأول مرة مدينة الشحر عام ١٥٢٣م هبت الحامي للدفاع عنها.. وقد بات واضحاً قدرة سكان الساحل الجنوبي على صد الهيمنة الأوروبية المتمثلة في الهولنديين والبرتغاليين.

رحم الله أولئك الرجال الأبطال رحمةً واسعة، فلا يليق بهم وصفاً إلا ما ذكره حفيدهم الشاعر عوض عبيد بن حمدون رحمه الله في قصيدته التاريخية:

رجـال صـبروا عالشـدائد والمصـاعب والمحـن
يصـارعون البحـر وأمواجـه في الليـل الظلـيم
إن عاهـدوا أو بـايعوا القائـد يـدفعون الـثمن
بـدمائهم وأرواحهـم يفـدوا وطنـهم والـزعيم
ومـن يعـاديهم يـروح أول يـدوِّر لـه كفـن
مـن قبـل تترمـل حريمـه والولـد يمسـي يتـيم
صـالوا وجـالوا في المـواني كلـها حـتى انقصـن
لا قلّحـت طرحـوا وشمـروا كلمـا هـب النسـيم

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

إلى أن قال في وصف تلك المعركة التاريخية متحدثاً عن ذلك العدو البرتغالي بعد أن فعل جريمته النكراء ببلاده الحامي بقوله:

ثم اتجه للشحر وكأنّه بها ظنّه بظن
ما جاء ببابه أن أهل الشحر با يلقوه صِيم
حنَّيَن بات الليل صوته من مآذنها يرن
منجلك يا عامل ويا فلاّح فاسك والشريم
وتكاتفوا التاجر مع الصيّاد والبادي رشن
من بعد ترحيل الشيابة إلى تبالة والحريم
بالسيف باللمشه برمحك أو بسكِّينك طعن
ومعاك في كل حي قائد كالأسد ينهم نهيم
من لي جرى له في الزبينة قائد الأسطول جن
هو راح لجهنم وسبعتنا لجنات النعيم[1]

ويقول الأستاذ محمد بامطرف مشيداً بدور أهل الحامي في معركة الشحر ومواجهة البرتغاليين في البر والبحر، في محاضرته

(١) شعراء من حضرموت ، مرجع سابق.

التاريخية التي ألقاها بساحة الشحر العامة عام ١٩٧٧م في مهرجان الشهداء السبعة:" وإنه لمن الواجب علينا ونحن نحتفل بتخليد شهداء القوى الإنتاجية والإشادة بهم واستعراض جانب من تاريخهم الوضّاء، أن نشيد بما كان للبحارة والربابين من مواطني الحامي الذين كانت لهم في أيام حوادث الشهداء أدوار مباشرة وغير مباشرة في معارك البرتغاليين على جانب عظيم من البطولة والفداء الوطنيين.

إن بحارة السفن وربابينها من أهل الحامي كانوا في طليعة الأبطال الذين كانوا يصارعون البرتغاليين في أعالي البحار، وقد تعرض الكثير منهم للقتل والإغراق وحتى العبودية، كان البرتغاليون إذا أغرقوا سفينة من سفن أهل الحامي يأخذون من سلِم منهم ويبيعونهم عبيد، ولكن أهل الحامي ما لانت لهم قناة واستمروا في الدفاع. وكانت سفن الحامي وحدها من بين السفن اليمنية التي كانت تقاوم البرتغاليين في البحر، ولذلك السبب جاء البرتغاليون إلى الحامي وأرادوا أن يدمروا الحامي، فهم يحملون حقداً دفيناً على أهل الحامي، وكان صمود أهل الحامي وثباتهم مثير

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010081702225

للإعجاب في وجوه القراصنة البرتغاليين، وبفضل الشجاعة والاستماتة اللتين أبداهما أهل الحامي، ظلت خطوط المواصلات البحرية بين البصرة والسواحل الإفريقية والهند وبين جنوب اليمن وخاصة الشحر مفتوحة باستمرار، ولم يبال أهل الحامي بما أصابهم من خسائر فادحة في الأموال والأرواح في سبيل أن تكون المواد الغذائية والتموينات المدنية الأخرى متوافرة في جنوب اليمن وخاصة الشحر والمكلا، فلو لم يكن جهاد أهل الحامي – الذي أشرنا إليه – لكان البرتغاليون الآثمون قد استطاعوا فرض حصار على منطقتنا ونشر المجاعات فيها.

فالشعب اليمني بأسره شمالاً وجنوباً، ونحن أهل الشحر بصورة أخص، في أعناقنا دين لأهل الحامي، دين تاريخي لأولئك الأبطال المجهولين من أهل الحامي، مع الأسف الشديد أن التاريخ لم يدوِّن لنا أسماء من أهالي الحامي في ذلك الوقت، أيام البرتغاليين، لكن أهل الشحر كانوا على الدوام يعترفون بجميل أهل الحامي، وأهل الشحر معروفين بذكرهم للجميل، في واحد اسمه سالمين بن عمر

بن مسلم من أهل الشحر قال بيتين في أهل الحامي كثير مننا يا الحاضرين نفهمها وهذا يقصد بهم أهل الحامي قال:

بو مسلم قال بالناظور خايل ساعية نتخت من زنجبار
وسطها شبان لي ما يحسبون التالية يشربون الحلو قار[1]

(١) لقد ذيلت البيتين المذكورين في أثناء جمع هذه الدراسة، بذكر بعض القبائل الحضرمية التي سكنت منطقة الحامي القديمة المعروفة اليوم بـ(البلاد الفوقية) وبعضها عاصر الغزو البرتغالي واكتوى بويلاته، بالأبيات الآتية:

منّهم سالم عمر لي حاز رتبة عالية قد خرج من خير دار
نوخذة مصيوت لي قد قاد كم من ساعية تمتخر وسط البحار
والمقدم بو علي نسل الأسود الضارية كم وكم فيهم نمار
آل بن عروة مع سبتي وأهل العالية والكعيتي بالجوار
والصواطر ثم باعباد حاز التالية مركبه أحسن وشار
وآل باغشوة وبارامي شروعه وافيه والصحابة والصهار
وآل بن مكنون بن هارون مولى الزاوية لي بتبهر له مزار
والكسادي ثم بن مرعي رجال الحامية عندما البادي يثار
وآل باوحده مع حبيشان كم من داهية رطلهم فاق البهار
بن براهم ثم باشحري وسكان الليَه والجرف أصل الديار
وآل بقرف ثم باطايع ختام القافية الأسد وسط البحار
كم وكم في بلدة الحامي جبال راسية صيتهم في كل دار
اسأل التاريخ عنهم والسنين الماضية إن ترد صدق الخبار

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

هذان البيتان قالوهما في أهالي الحامي، هذا يجب أن نفهمه نحن، اعتراف من أهالي الشحر بما كان لأهالي الحامي من يد في مسألة البرتغاليين ودفاعهم عن الشحر".[1]

لقد كانت معركة الشحر التاريخية، من أبرز معالم التاريخ الوطني بحضرموت، تلك المقاومة الباسلة التي أبداها أهل الشحر العزّل من السلاح في وجه الحملة الانتقامية التي شنّها البرتغاليون على مدينتهم، بعد أن انهزم أولئك المستعمرون أمام الأمير مرجان الظافري في عدن عام ٩٢٣هـ (١٥١٧م)، ولم يتمكنوا من الاستيلاء على عدن بعد هذه الحادثة. وكانت هذه المعركة أول مقاومة تهب في وجه الأطماع الاستعمارية الأوربية في اليمن أو ربما في العالم العربي بأسره عام ١٥٢٣م. وظلت ذكرى هذه البطولة الوطنية نبراساً يضيء سبل الفداء والشرف والكرامة عبر صفحات التاريخ الحضرمي.[2]

(١) محاضرة عن تاريخ الشهداء السبعة، شريط كاسيت.

(٢) المختصر في تاريخ حضرموت ، مرجع سابق، ص ٨٤-٨٧.

وفي عام ٩٤٢هـ (١٥٣٥م) عاود البرتغاليون الكرة لاحتلال الشحر، وقد اختلفت روايات المؤرخين الحضارمة في ذلك فيذكر المؤرخ باسباع: أنه في صباح يوم الأحد الخامس من شهر رمضان سنة الاثنين والأربعين والتسعمائة، حصلت منازعة بين أحد التجار البرتغاليين (البردجيز) وأحد الهنود (البانيان) في سوق الشحر، في مساومة على قماش البز، واصطف فيها أهل الشحر مع التاجر الهندي، وبلغوا السلطان بدر وهو في حصن البلاد بما جرى فأصدر أوامره بقتل جميع البرتغاليين الموجودين بالشحر، وكان عددهم مائة شخص تقريباً، فقتل منهم ما يقارب ستين شخصاً، وهرب البعض إلى إحدى سفنهم الراسية وأبحرت بهم، واحتمى ثلاثون منهم في دار مبارك باناعمة في مطراق حنين، وأمر السلطان جنوده أن يقبضوا ويستولوا على سفنهم الراسية بالميناء وقدرها إحدى عشرة سفينة مع من فيها من البحارة والبضاعة، ثم أرسل السلطان بدر أربعة من كبارات البرتغاليين إلى السلطان سليمان التركي إلى جدة، وسجن عشرين منهم في سجن غيل باوزير، والسفن حقهم

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

وآلاتها باعوها في سوق الشحر مع بضاعتهم وفرقها السلطان بدر على المتضررين من التجار كآل شبام وغيرهم.[1]

بينما يذكر المؤرخ عبد الله باسخلة في تاريخه الآتي: في ضحى يوم الأحد لخمس مضين من شهر رمضان فتك السلطان بدر وأشراف الجوف بالإفرنج الذين بالبلاد بعد أن أظهروا فيها الفساد، وقتل منهم ذلك اليوم نحو ثلاثين رجلا، وحصر القبطان في بيت في القرية، ومعه نحو الأربعين من رؤسائهم من ضحوة ذلك اليوم إلى قريب العصر، فطلبوا الأمان فأمنهم السلطان، واستولى على جميع أموالهم وعبيدهم وعروض تجارتهم، وشيء من خشبهم، وبعضهم هرب ببرشة من البندر، فمن خشبهم نحو أربع عشرة خشبة.[2]

ويذكر المؤرخ بافقيه في تاريخه: قتل السلطان بدر جماعة من الإفرنج الذين عنده بالشحر وأرسل للباقين وقيدهم ونهب أموالهم، وأرسل جماعة منهم نحو ثلاثة وثلاثين إلى جدة ومنها إلى

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٩٢، ٩٣.

(٢) العقد الثمين الفاخر، مرجع سابق، ص ٥٣.

السلطان سليمان إلى الروم، وأرسل مكاتبات إليه والى نائب مصر، وكان جملة القتلى من الإفرنج نحو الأربعين وجملة الجميع يزيدون على المائة.. وهرب نحو ثمانية في برشة من برشهم، ووجدوا منهم جماعة في البيوت مستخفية .. وتوصل جماعة منهم من السواحل ومعهم مال، فأخذهم وقيدهم مع أصحابهم، وأرسل السلطان بدر بخمسة وثلاثين في برشة إلى السلطان سليمان العثماني.[1]

بينما يذكر المؤرخون المعاصرون كالأستاذين محمد بن هاشم وسعيد عوض باوزير: أن البرتغاليين أقبلوا بعدد كبير من السفن لتنفيذ حملة كبرى على الشحر، وحصلت معركة بين البرتغاليين وجنود السلطان بدر أبوطويرق الذي كان موجوداً بالشحر في هذه المرة ، ولم يكد جنود الإفرنج ينزلون إلى البر حتى أرسل أبوطويرق إلى سفنهم من يأسرها ويلقي القبض على من فيها ، واشتد القتال في البحر والبر، وصمد جنود أبي طويرق وقاتلوا قتالاً شديد، وقتلى

(١) تاريخ حوادث السنين، مرجع سابق، ص ١٩٩، ٢٠١.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

الإفرنج في كل شارع، وأسر من الإفرنج سبعين فرّقهم على عساكره، وهرب منهم مائة شخص على إحدى السفن البرتغالية، وأهدى خمسة وثلاثين من الأسرى إلى السلطان العثماني في اسطنبول، تودداً وطمعاً في تحسين صلته بالأتراك لتنفيذ مطامحه السياسية، كما أرسل أحد عشر أسيراً إلى أخيه محمد وهو يومئذ والي ظفار، واستصحب معه ثلاثين منهم عندما عاد إلى داخل حضرموت في صيف سنة ٩٤٢هـ.[1]

والأقرب للصواب هي رواية الربّان المؤرخ سالم بن عوض باسباع، وهي التي اعتمدها المؤرخ بامطرف، وعلّق على تلك الروايات التاريخية وتضاربها قائلاً:" المؤرخون الذين أتوا في أعقاب المؤرخ الربان باسباع ذكروا تفاصيل هذه الحادثة بروايات مختلفة. وقد أفردت لتلك الروايات دراسة خاصة أسميتها (مناقشة تاريخية) في حوالي عشرين صفحة، حاولت فيها إظهار التناقض بين تلك الروايات واستبعاد ما لا يقبله العقل منها".[2]

(١) تاريخ الدولة الكثيرية وصفحات من التاريخ الحضرمي، مرجعان سابقان.

(٢) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ١٠٣.

وقد كرر البرتغاليون اعتداءاتهم على السواحل الحضرمية إلى أواخر القرن الحادي عشر الهجري، فيذكر المؤرخ محمد بن عبدالرحمن بن شهاب أن في عام ١٠٩٧هـ نودي في حضرموت بالنفير العام للجهاد في الشحر ضد البرتغاليين، وقد نفر له كثير من المجاهدين من السادة العلويين وغيرهم من الحضارمة، ويقال إنه خرج من نواحي هينن فقط ستمائة فارس فذهبوا مع النفير العام، وقد منحهم الله النصر فهزموا البرتغاليين بعد أن احتلوا الشحر سنة وبضعة أشهر، وقد استشهد بتلك المعارك العديد من الحضارمة منهم السيد العلامة عبدالله بن محمد بن أحمد السقاف، وكانت حضرموت لا تزال لذلك العهد حية معمورة.[1]

(١) بيانات عن الحضارمة ، مرجع سابق، ص ١٧٢.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

المبحث الخامس

القرصنة البرتغاليّة
على السفن الحضرميّة الحاميّة وآثارها السلبيّة

لم ينسَ البرتغاليون ما قام به أهل الحامي من دور حيوي في الدفاع عن عدن، ومساندة إخوانهم في مدينة الشحر والوقوف ضد أعمالهم الوحشية، فقد حملوا عليهم حقداً دفيناً ظهر جلياً فيما قاموا به من تنكيلٍ وقتل وإغراق وإحراق لسفن أهل الحامي، وملاحقتها في أعالي البحار وأسر بحارتها وربابنتها الأفذاذ، وفي ذلك يقول الأستاذ محمد بامطرف: "إن دور أهل الحامي أيام اشتداد الوطأة البرتغالية على موانئ الجنوب اليمني دور لا ينكر. فأهل الحامي كانوا يمثلون الجزء الأكبر من بحارة السفن الشراعية التي تناوش القراصنة البرتغاليين... ورغم الأخطار المدمرة التي تعرضوا لها على أيدي القراصنة البرتغاليين ثم الهولنديين ظل أهل الحامي يجوبون البحار بسفنهم الشراعية، من خليج البنغال إلى خليج السويس ومن

مشارف ناتال بجنوب إفريقيا إلى ميناء البصرة، وبذلك أبقوا الخط الملاحي الشهير المعروف بخط مسقط ـ الشحرـ المخا مفتوحاً للتجارة بين جنوب بلاد العرب والعالم الخارجي .. وذلك شرف سجله لهم التاريخ دون غيرهم من اليمنيين فيما نعتقد. لقد تعرض أهل الحامي للقتل والإغراق والاختطاف والإحراق والاسترقاق على أيدي البرتغاليين، ولكنهم لم تلن لهم قناة، وفيهم قال الشاعر الشعبي سالمين بن عمر بن مسلم الشحري (توفي عام ١١٩٤هـ):

بن مسلم قال بالناظور خايل ساعية نتخت من زنجبار

وسطها شبان ذي ما يحسبون التالية يطعمون الحلو قار[1]

ونظراً للجشع والطمع البرتغالي في ابتغاء المزيد من خيرات الشرق عن طريق التسلط القهري والإخضاع العدواني والنهب الدنيء، بات البرتغاليون يطاردون السفن التجارية غير البرتغالية في أعالي البحار ومن المياه الإقليمية لأقطار حوض المحيط الهندي، ولربما سمحت السلطات البرتغالية لبعض السفن الأجنبية أن

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٤١، نقلاً عن زاد الأسفار ص ٩٤، للمؤرخ سعيد علي بامعيبد.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

تتجول في المحيط الهندي مقابل رسم مرور باهظ التكاليف قصد به تثبيط همم التجار وخاصة أولئك الذين لا يجنون من وراء هذه التجارة البحرية غير النولون، أي الأجرة – على حد تعبير المؤرخ بامعيبد – كما كان حال معظم أربا ب السفن الحضرمية.

ولم يقف احتكار ملك البرتغال للتجارة الشرقية والإفريقية عند حد الحيلولة دون استفادة العرب والهنود والإيرانيين منها، بل أنه أصدر مرسوماً منع بموجبه السفن البرتغالية، ذات الصبغة التجارية البحتة التي لم تكن خاضعة لسياسته ولم تدر في فلك أطماعه، من ممارسة الاتجار في الشرق وإفريقيا الشرقية .. فكانت هذه السفن البرتغالية تتعرض للإغراق، على أيدي قراصنة الملك البرتغالي، بنفس القسوة التي كانت تغرق بها سفن أهل الحامي الذين كان البرتغاليون يحرقون سفنهم ثم يأخذون بحارتها ويبيعونهم أرقاء في أسواق المغرب العربي، ويرغمون نواخيذها وملاحيها، تحت تهديد بالقتل، على العمل في سفنهم كمرشدين بحريين.[1]

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٤٨، نقلا عن كتاب زاد الأسفار للمؤرخ بامعيبد ص ٣٥.

لقد دفعتا الشحر والحامي رجالهما وأموالهما ضريبة فادحة، دفعتاها في سبيل التضامن الأخوي مع عدن، ولم تستنكفا التعرض لتلك الكارثة من أجل إعلاء فكرة سامية هي فكرة المؤازرة والتأييد لشقيق تعرض بلده وأهله لكيد المستعمرين الطغاة.

والسبب الرئيسي في مطاردة السفن الحضرمية الشحرية والحامية وغيرها يعزوه الأستاذ بامطرف إلى سياسة السلطان بدر بن عبدالله الكثيري أبو طويرق الذي تظاهر بالخنوع أمام البرتغاليين وتقاعس عن القيام بدوره من التصدي لأولئك المستعمرين، مع ما عرض عليه من مساعدة لمواجهتهم من قبل مشايخ وقبائل حضرموت، مما ألّب عليه الرأي العام الحضرمي حتى قال الشاعر عبدالله بن عبود بامذحج الشحري وهو أحد الأبطال المقاومين للبرتغاليين، معرضاً بحروبه وحملاته الداخلية الغير المجدية بين القبائل الحضرمية:

قدها عليه هتفه يضم ويضيّع ... ويوقظ الفتنة وهي نعسانه
حلاّن كم من دار صبحهم طِيَرْ ... بشوره العاثر غدت حزنانه
ما فادت الحملات قله هوِّن ... الجند فشلت والعرب تلفانه
ضيّعت رزق الخلق في كثر السفه ... ألوف ذي ضيّعتها حنّانه[1]

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٦٣.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

ويشير الدكتور روبرت سارجنت أن سياسة أبوطويرق مع البرتغاليين والأتراك هي المراوغة لهم،[1] بل كان يجاملهم ويسكت على تصرفاتهم في حق رعاياه، ويفاديهم بالمال ويبسط لهم الأمان لاتقاء شرهم على حد تعبير المؤرخ الطيب بافقيه الشحري.[2]

وكان البرتغاليون يدركون الحال الذي عليه السلطان بدر، ولذلك فإنهم كانوا مطمئنين إلى أن غاراتهم على الموانئ الحضرمية لن تقابل بأية مقاومة من السلطان بدر؛ لأنه في شغل شاغل بأحواله الداخلية. لذلك تكررت غارات البرتغاليين على السفن الحضرمية في أعالي البحار وفي الموانئ المجاورة رغم أنهم لم يجرؤا على النزول كرة أخرى لا في الشحر ولا في ما جاورها من الموانئ.

ولقد حاول السلطان بدر أن يعقد لواء الصداقة بينه وبين البرتغاليين على أساس الكف عن العدوان على رعاياه، ولكن البرتغاليين، في الوقت الذي أظهروا فيه الود له وكانوا يترددون على

(١) مرجع سابق theporuguese of the SouthArabian Coast,

(٢) تاريخ حوادث السنين، مرجع سابق، ص ١٩٥.

ميناء الشحر متاجرين، لم يكونوا مرتاحين لنشاط السفن الحضرمية في أعالي البحار وفي شواطئ حوض المحيط الهندي. لذلك كان البرتغاليون يغيرون على السفن الحضرمية وكأنها لا تعني السلطان بدرا في قليل أو كثير، وكان السلطان بدر، فوق ذلك، يمنع أية مقاومة ضد البرتغاليين في ميناء الشحر، لأنه بحكم عقدة الشعور بالعجز، بات حريصاً على مسالمة البرتغاليين بأي ثمن – وقد دفع أهل الشحر والحامي وبقية الحضارم ذلك الثمن الباهظ.[1]

وبالرغم من ذلك التقاعس الذي أبداه السلطان بدرأبو طويرق فقد ظل الملاحون الحضارمة يجوبون بسفنهم البدائية الصغيرة كل أرجاء المحيط الهندي والبحار المجاورة في دائرة تبتدئ من ميناء الشحر إلى كراتشي وبمبي وكاليكوت وكولومبو ومدراس وكلكتا ورنجون وموانئ إفريقيا الجنوبية فالشرقية فشواطئ البحر الأحمر الغربية ثم شواطئه الشرقية ثم إلى ميناء الشحر عن طريق ميناء عدن. ثم يذهبون مع الرياح التجارية إلى مسقط وخليج عمان بأكمله ثم

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٨٢، ٨٣.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

الخليج العربي متخذين الساحل الإيراني طريقاً لهم إلى البصرة ثم يعودون لدى تحرك رياح الأزيَبْ. ولم تكن أسفارهم كلها سهلة ميسورة. كان أسلافنا من ربابنة الحامي وغيرها يغامرون في وجه أخطار محققة يعتقدون أنهم كانوا يملكون وسائل تفاديها. ويتعثر الحساب أحيانا ويتعرضون للمهالك... وكانوا يجالدون قوة تفوق قوتهم ولكنهم لم يكونوا يحجمون استخذاءً بل كانوا يركبون العباب وتكون النتيجة إما كاسرين أومكسورين. وكانوا في طليعة المغامرين، فكانوا يتعرضون على أيدي البرتغاليين للإغراق والإحراق والنهب والاختطاف والأسر. فيضمد الباقون جراحهم الدامية ويغامرون بدورهم وكأنهم لم يكونوا جوابين في فم الهلاك الناغر.. لقد قاتلوا القراصنة وهادنوا العناصر الطبيعية حتى انتصروا في النهاية وعاد طريقهم البحري آمنا اللهم إلا ما تأتي به القوة القاهرة التي لا يملك أحد منها مفرا كالعواصف الهوجاء أو الحرائق المدمرة التي تقف السفينة الشراعية كما تقف السفينة البخارية وكذا السفينة النووية أمامها ضعيفة هزيلة لا تملك من أمرها شيئا.[1]

(١) بامطرف، مقدمة القاموس البحري للكسادي ص ٢٠- ٢١.

لقد عرف البرتغاليون أن أكبر منافس لهم في شواطئ البحر الأحمر والبحر العربي وشواطئ شرق إفريقيا والمحيط الهندي هو ذلك الأسطول الحضرمي الذي قاعدته قرية الحامي، مدركين أن هذا الأسطول هو الذي قام بنقل الجنود من مدينة الشحر إلى مدينة عدن لمحاربتهم، وهذا ما زاد من مراقبتهم لتحركات سفن أهل الحامي في المواصلات البحرية سواء كانت من الناحية التجارية أم العسكرية، وبدأوا يراقبون أسطول الحامي لقوته نجدةً ومغامرةً من الناحية الملاحية، ولأنه يرتاد كل الشواطئ التي يحاول البرتغاليون ارتيادها، فبقي أولئك الغزاة البرتغاليون مركزين اهتمامهم على أسطول الحامي، يطاردونه ويعترضونه من وقت لآخر في أعالي البحار، وعلى شواطئ البحر العربي، ينهبون محتوياتها، ويختطفون بحارتها ونواخيذها وربابنتها، ويأسرونهم، ويحرقونهم أحياء، ذلك كله كان يحدث لأهل الحامي، ولكنه لم يقعدهم، وإنما بقوا صامدين ضد الغزاة، متجولين في فم الهلاك، حتى لا يشغل البرتغاليون خطوط الملاحة البحرية في كل الشواطئ التي يرتادونها في تجارتهم غزاةً مستعمرين.[1]

(١) أبطال منسيون، مرجع سابق، ص ٧٢-٧٤.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

وسنتحدث في هذا المبحث عن نماذج من بطش وطيش ذلك العدو البرتغالي، وما كان يفعله في أهل الحامي وفي سفنهم التجارية، وهي ما تحدثت عنه بعض المصادر، وهناك الكثير من الأشياء التي تصمت عنها تلك المصادر مثل ذكر أسماء الشهداء والمأسورين من بحارة وربابين وركاب، وكذلك أسماء السفن ومالكيها وغيرها من المعلومات التي لو توافرت لحفظ بها جزء من تاريخ أولئك الأبطال.

- **البرتغاليون يغرقون ثلاث سفن لأهل الحامي:**

في شهر شعبان سنة ٩٣٠هـ (١٥٢٣م) أبحرت السفن الحضرمية ومن بينها سفن الحامي من موانئ شرق إفريقيا في موسمها السنوي المعروف بـ(الديماني) محملة بالبضائع والركاب، وكان برفقتها بعض السفن الخليجية والعمانية، وبينما هم في طريقهم إلى البر العربي اعترضهم البرتغاليون بسفنهم الحربية، وجرى بينهم ما جرى من المواجهة، وأغرقوا منها ثلاث سفن يمتلكها أهل الحامي، وأربع سفن لأهل صور وأهل الكويت.[1]

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٨٤.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

- **البرتغاليون يغرقون ١٤ سفينة لأهل الحامي:**

في شهر جمادى الأولى سنة ٩٣٤هـ (١٥٢٧م)، أبحرت من ميناء الحامي أربع عشرة سفينة متجهة إلى ميناء البصرة، وبعد أن تم شحنها بتمور البصرة، غادرت ميناء العشار، وعند رجوعهم اعترض البرتغاليون طريقهم، وفعلوا بهم الأفاعيل ونكلوا بهم وأغرقوا تلك السفن الحامية عن بكرة أبيها، وقد أحدث ذلك العدوان البرتغالي ضجة عظيمة كبرى في ربوع حضرموت، وعلى إثر ذلك قدم إلى الشحر العشرات من المحاربين يتقدمهم الفقيه الشيخ عمر بن أحمد العمودي وبصحبته مشايخ قيدون وقبائل سيبان للاشتراك في جهاد مقدس ضد البرتغاليين. (١)

كما يحدثنا المؤرخ بافقيه بقوله: وصل الفقيه الصالح عمر بن أحمد العمودي ومعه جماعة من فقهاء قيدون، منهم جماعة من أولاده، وأقاربه، بنية الجهاد وذلك لأن الإفرنجي المخذول وصل

(١) الشهداء السبعة، ص ٨٤، وأبطال منسيون ، ص ٧٣، مرجعان سابقان.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

إلى المشقاص في نحو أربع عشرة خشبة، وتخوف أهل الشحر من وصوله، فصرفه الله عن الشحر، وكفى الله المؤمنين القتال.[1]

وطلب الشيخ العمودي من السلطان بدر بن عبدالله الكثيري أن يشن الجهاد ضد البرتغاليين لتعديهم على سفن الحامي، واتخاذ إجراء ضدهم حيث كانوا يفدون إلى ميناء الشحر من إفريقيا الشرقية لأعمال تجارية، ولكن السلطان بدر واجه طلبه بالرفض، ولم يستجب لطلب المشايخ والقبائل التي وفدت إلى الشحر مستنكرة ومحتجة على ما حصل من البرتغاليين على سفن أهل الحامي.[2]

ولا شك أن البرتغاليين قد أسروا بعض بحارة تلك السفن وركابها من أهل الحامي وغيرهم، ولكن الله نجاهم من ذلك الأسر، وذلك عندما تعرضت في عام ٩٣٥هـ (١٥٢٨م) مراكب الغزاة البرتغاليين، وكانت أربع عشرة سفينة، للغرق عندما هاج عليها طوفان بحري وكسّرها، وخرج منها جملة من أسارى

(١) تاريخ حوادث السنين، مرجع سابق، ص ١٥٧.

(٢) أبطال منسيون، مرجع سابق، ص ٧٣.

المسلمين- ومن بينهم بحارة وركاب سفن أهل الحامي- الذين معهم سالمين.[1]

- **البرتغاليون يأسرون ربانًا وناخوذة من أبناء الحامي:**

في شهر محرم سنة ٩٣٧هـ (١٥٣٠م) اعترض البرتغاليون سفينة لأهل الحامي بالقرب من رأس فرتك، كانت قادمة من ميناء مسقط العماني، واختطفوها، ثم أعادوها بعد أن افتداها أهل الحامي، ولكن البرتغاليين رفضوا تسليم الناخوذة والربان، وأخذوهما معهم إلى الهند أسيرَين ، ولم يعلم عنهما شيء بعد ذلك.[2]

وهكذا كان البرتغاليون يأخذون من سفن الحامي ربابنتها للاستفادة منهم لإرشاد سفنهم في المحيط الهندي، وتعليمهم فنون الملاحة البحرية، وذلك لما عرفوا به من تفوق وخبرة ملاحية وفلكية تعود إلى ما قبل الإسلام، حتى ذهب المؤرخ البحري بدر أحمد الكسادي،

(١) تاريخ حوادث السنين، مرجع سابق، ص ١٥٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٦٧، والشهداء السبعة، ص ٨٥، وأبطال منسيون ، ص ٧٤، مرجعان سابقان.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010008170225

أن الملاح العربي المسمى عمر الذي أسره البرتغاليون بالقرب من جزيرة سقطرى، وكان رباناً عظيماً ذا معرفة بالساحل العربي، ويدين له القائد البرتغالي الفونسو البوكيرك بفتوحاته لمنطقة عدن والخليج العربي، عندما استعان بخارطته العربية لتلك الموانئ، أنه ربما يكون من أهالي الحامي نظراً إلى الاسم وقرب المسافة.[1]

- **البرتغاليون ينهبون أربع سفن حاميَة في ميناء الشحر:**

في أول شهر رمضان سنة ٩٣٨هـ (١٥٣١م) وصلت إلى بندر الشحر أربع سفن برتغالية، وهاجم البرتغاليون أربع سفن لأهل الحامي كانت راسية في ميناء الشحر، كانت قد عادت من رحلاتها التجارية، ونهبوا ما كان بها من بضائع لتجار الشحر.[2]

هذا بعض من العنت البرتغالي الذي تعرضت له سفن الحامي وبحارتها الشجعان، وقد بلغت تلك السفن ثلاثين سفينة أو ما يزيد،

(١) أبطال منسيون، مرجع سابق، ص ٦٧، ٦٨.

(٢) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص ٨٦.

هذا ما ذكرته كتب التاريخ بالاسم، ومما لا شك فيه أن هناك العشرات من الحوادث المروعة لسفن الحامي لم تؤرخ. وقد بلغ التجبر والعنت بالعدوان البرتغالي أن يرمي بركاب تلك السفن في البحر أحياء كما يحدثنا المؤرخ عبدالله باسخلة في حوادث سنة ٩٤٢هـ: أن البرتغاليين اعترضوا إحدى السفن المتجهة إلى جدة وكان ركابها حجاج بيت الله الحرام، فقتلوا بعضهم ورمي بعضهم في البحر، ومنهم الفقيه الصالح عبدالوهاب بن عبدالصمد العشني والناخوذة يعقوب بن لشول الظفاري ومحمد باحنان، وغيرهم ونجا البعض منهم.[1]

(١) العقد الثمين الفاخر ، مرجع سابق، ص ٥٥.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010081702225

الآثار السلبية للقرصنة البرتغالية:

ترك الغزو البرتغالي على ساحل حضرموت خلفه العديد من السلبيات والآثار السيئة التي منيت بها حضرموت واكتوى بنارها الحضارمة من أبرزها هجرتهم للمهاجر المتعددة، كما يقول المؤرخ ابن شهاب عن الحضارمة ورحلاتهم إلى المناطق النائية:" الحضرمي حليف أسفار وركاب أخطار وأبعد الناس منتوى وأقصاهم رحلة، وقد كان ذلك شأن الحضارمة من قبل التاريخ حتى ظن كثير من المؤرخين ومنهم (جمس هنري بريستيد) أن سكان مصر القدماء ومؤسسي الحضارة فيها وبعض أهل إفريقيا الشمالية إنما جاءوا من حضرموت".. ثم ذكر أن سبب رحلة الحضارمة هي تلك الغزوات البرتغالية المتكررة على سواحلهم وما رافقها، والحوادث كالمجاعات والسيول العظيمة بقوله: "وقد كان في أوائل القرن العاشر زمن حرب وسلب وأمور كثيرة تقتضي نزوح الحضرمي عن بلاده متلبسا لباس المكافحة والمناضلة، وكانت الروح الحربية شائعة فيهم إذ ذاك. وقد زاد في تضييق خناق الحضارمة القحط الواقع في

سنة ٩٤٥هـ حتى أكلوا الجلود. والسيول العظيمة التي وقعت سنة ٩٣٩هـ فإنها أتلفت نخيلهم وأرضهم حتى لم يبق منها إلا القليل وأضرت بالجهات الجنوبية الغربية من حضرموت ضرراً بليغاً، فزادت هذه الحوادث الحضرمي إذ ذاك محبة في الرحلة والضرب في البلاد وبغضاً في البرتغال الذين يقطعون عليه طريقه، فعزم على مناوأتهم ومطاردتهم فكان لا يسمع بمناوئ لهم إلا وانضم إليه ولا يحل ببلاد إلا وشحنها بغضا لهم".[1]

ومن الآثار السيئة التي خلفها الغزو البرتغالي: موت واختطاف العديد من الربابنة والنواخيذ الحضارمة وضياع سجلاتهم الملاحية والفلكية من رحمانيات ومرشدات وروزنامات، كما يحدثنا الأستاذ بامطرف إن في تلك الفترة العصيبة مات غرقا العديد من الملاحين الحضارمة على أيدي البرتغاليين، وضاعت كتبهم وسجلات أسفارهم في البحر.[2]

(١) بيانات عن الحضارمة، مرجع سابق، ص ١٦٨-١٧١.

(٢) الرفيق النافع ، مرجع سابق، ص ١٦.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

ويقول الأستاذ عبدالرحمن الملاحي: إن فقدان المصنفات البحرية لملاحي جنوب الجزيرة العربية والمصادر المكتوبة الدالة عليهم وعلى علمهم، تذكرنا بغزوات الأساطيل الأوربية في القرن السادس عشر الميلادي للمحيط الهندي، واعتداءاتهم المتكررة على السفن العربية وغرقها وأسر ربابنتها، إضافة إلى الكوارث البحرية المؤدية في غالب الأحيان والحالات إلى الهلاك. [1]

(١) حول الدراسات البحرية العربية، نشرة الساعية ص ٧- ٨، العدد (١١) مايو ٢٠٠٥م ، لجنة إحياء التراث البحري والشعبي بالحامي.

خَاتِمَة

بعد حمد الله وتوفيقه، فهذه أسطر وجيزة، تحدثنا فيها عن الغزو البرتغالي على ساحل حضرموت ودور أبناء الحامي الأبطال في التصدي لتلك المباغتات الشرسة من ذلك العدو الإفرنجي الغاشم.

لقد سطّرت الحامي وأهلها الأوفياء أروع الأمثلة في الفداء والتضحية والنجدة؛ لما وقفوه من مواقف مشرِّفة في تلك الفترة التاريخية العصيبة، التي اكتوت بنارها موانئ حضرموت، وما رافقها من قتل للرجال والنساء، وتخريب للمساكن، وإحراق للمزارع، وغرق للسفن، وأسر للبحارة والملاحين والمسافرين.

وقد دفعت الحامي الثمن غالياً على تلك المواقف البطولية، بفقدان العشرات من خيرة شبابها ورجالها وبحارتها الأكفاء، وربابنة السفن ومدوناتهم مع مجموعة من السفن الشراعية التي بلغت أكثر من ثلاثين سفينة، والتي كانت تشكل عصب الحياة التجارية والاقتصادية لسكان وحكام ساحل حضرموت .

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010081702225

وبالرغم من كل تلك المخاطر والأهوال البشرية التي تعرضت لها سفن أهل الحامي وبحارتها؛ إلا أنهم مكثوا يمخرون بسفنهم الشراعية حوض المحيط الهندي للاتجار بين بلاد العرب والهند وشرق إفريقيا، غير مكترثين بأولئك الغزاة وعنتهم وتجبرهم، متوكلين على الله تعالى ومعتمدين على حوله وقوته، ولسان حالهم مردداً قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:٥١].

لقد علَّمنا أولئك الأجداد ببسالتهم العديد من الدروس التي ينبغي أن نستلهمها في حياتنا الاجتماعية، وتكون نبراساً لنا يضيء إلى دروب التضحية والفداء. وقد علمنا الأجداد أنه لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس، فلو استكانوا إلى العنت الإفرنجي البرتغالي لجعلهم عبيداً أذلاء، كما فعل بالكثيرين من إخوانهم العرب في موانئ عمان والخليج العربي، ولكنهم وقفوا موقف الذائد عن الحرمات والمدافع عن الأوطان بما أوتوه من قوة واستطاعة، مسترشدين بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من قتل دون دينه فهو شهيد،

ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد». رواه أبو داود والترمذي وصححه.

حتى استطاعوا أن يدحروا ذلك الكابوس الذي خيّم على ساحة ارتزاقهم بل أذعن لهم، وشهد كثير من الباحثين الغربيين بفضلهم وشجاعتهم وبسالتهم في تلك الملاحم البطولية الرائعة، التي سطروا فيها أروع التضحيات، وأظهروا فيها تلك القدرات الشجاعة رغم بساطتها، والفضل ما شهدت به الأعداءُ.

لقد تناقل الأهالي عبر القرون حوادث الغزو البرتغالي على الحامي والشحر وبقية مناطق ساحل حضرموت، وتحدثوا عن مواقف أجدادهم وبسالتهم بكل فخر واعتزاز، وخلّدوا تلك المقاومة الشعبية عبر القرون في بعض فنونهم الشعبية التي يمارسونها في أفراحهم وأعيادهم وزياراتهم السنوية مثل لعبة العدة الشعبية المعروفة في مدن ساحل حضرموت ثم نقلت إلى مدن الوادي، وتميزت مدينة الحامي بفن مستقل عن سائر المناطق الحضرمية في تلك اللعبة الفنية الحربية، حيث يلبس فيها اللاعب لباساً يشبه

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +2001008170225

لباس الحرب، ويتمنطق بثوب (عصرة) في وسطه، يغرز فيها خنجراً صغيراً، ويمسك العصا بيده اليمنى، والدرع (الجوب) بيده اليسرى، ويعتم بعمامة حمراء تعرف بـ(الرمال)، وكأنه يتهيأ للهجوم، ثم يتوقع برجليه على ضربات الهاجر والمراويس، محركاً العصا ومثبتاً الدرع كأنه متجهاً إلى ساحة المعركة - كما هو موضح بالصورة في الغلاف الخلفي لهذا الكتاب -، وتسمى الصفوف الأولى من اللاعبين بـ(المُقْدُم) والمؤخرة بـ(المتْرَس) ويتوسطهم ضاربوا الإيقاع (الهاجر والمرد والمراويس).

وفي اعتقادنا أن أول مشاركة لأهالي الحامي بهذه اللعبة الحربية الفنية هي في الذكرى الأولى للشهداء السبعة، التي أقيمت بمدينة الشحر في عصر يوم الخامس عشر من شهر ذي الحجة سنة ٩٤٣هـ، باقتراح من قاضي الشحر العلامة عبدالله بن عمر بامخرمة (ت ٩٧٢هـ) على السلطان بدر بن عبدالله الكثيري (ت ٩٧٧هـ)، والتي وفد إليها أبناء حضرموت من شتى المناطق الساحلية والداخلية إحياءً واحتفاءً بذكرى أولئك الشهداء الأبطال.[1]

(١) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص٩٣.

وعلى الرغم من مرور خمسة قرون تفصلنا عن عهد تردد القراصنة البرتغاليين على شواطئ جنوب اليمن، ولكنها لم تمح الذكريات المؤلمة التي ينطوي عليها أهل الحامي للغارات البرتغالية التي كانت تُشن على سفنهم من البرتغاليين.(١)

رحم الله أولئك الأجداد من سكان الحامي الذين شاركوا في نقل النجدة الحضرمية إلى عدن، والذين دافعوا عن حياض الشرف والحرية والكرامة مع إخوانهم في الشحر، والذين تصدوا للطغيان البرتغالي في أعالي البحار بكل شجاعة واستبسال.

آملين أن تكون هذه الدراسة المختصرة تخليداً لذكراهم العطرة، وتذكيراً لأحفادهم بذلك الدور الرائع الذي قاموا به، يستلهمون منه الدروس العملية، ويتخذونه منهاجاً في حياتهم الدنيوية، لا وسيلةً للتفاخر والمدح، ويقتدون بهم في التضحية والفداء ومحبة الأوطان وحمايتها من كل متعنتٍ جبّار.

والله من وراء القصد أولاً وآخراً .. والحمدلله رب العالمين.

(١) أبطال منسيون، مرجع سابق، ص٢١.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010081702225

المصادر والمراجع

ـ بدر أحمد الكسادي:

١. أبطال منسيون من ربابنة الملاحة البحرية العربية، تحقيق محمد علوي باهارون، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة ٢٠١٢م.

٢. القاموس البحري، تقديم محمد عبدالقادر بامطرف، مراجعة حسن صالح شهاب، الطبعة الأولى، المجمع الثقافي أبوظبي ٢٠٠٤م.

ـ محمد عبدالقادر بامطرف:

٣. الرفيق النافع على دروب منظومتي الملاح باطايع، مطبعة السلام عدن ١٩٧٢م.

٤. الشهداء السبعة، دار الحرية للطباعة، مطبعة الجمهورية بغداد ـ ١٩٧٤م.

٥. محاضرة عن تاريخ الشهداء السبعة، شريط كاسيت، ١٩٧٧م.

٦. المختصر في تاريخ حضرموت العام، دار حضرموت للدراسات والنشر بالمكلا، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.

ـ محمد علوي باهارون:

٧. شعراء من حضرموت ، بحث غير منشور.

٨. ميناء الحامي في عيون الباحثين والمؤرخين العرب والأجانب، الطبعة الأولى، دار الحامي للدراسات والنشر ٢٠١٦م.

9. R.B.serjeant theporuguese of the SouthArabian Coast, libraire du liban Beirut , 1963.

١٠. **محمد بن هاشم العلوي**، تاريخ الدولة الكثيرية بحضرموت، تريم للدراسات والنشر بتريم، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

١١. **أنور محمد عبد العليم**، ابن ماجد والبرتغال، الندوة العلمية لإحياء تراث ابن ماجد، الجزء الثاني، اتحاد أدباء وكتاب الإمارات ودار الحوار للنشر والتوزيع بسوريا، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

١٢. **حسن صالح شهاب**، فن الملاحة عند العرب، مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء، ودار العودة بيروت، الطبعة الأولى١٩٨٢م.

١٣. **سعيد عوض باوزير**، صفحات من التاريخ الحضرمي، مكتبة الثقافة عدن، بدون تاريخ.

١٤. **سليم طه التكريتي**، المقاومة العربية في الخليج العربي، دار الرشيد للنشر، العراق ١٩٨٢م.

١٥. **الطيب بن عبدالله بامخرمة**، النسبة إلى المواضع والبلدان، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مركز الوثائق والبحوث، أبوظبي، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

١٦. **عبدالرحمن عبدالكريم الملاحي**، حول الدراسات البحرية العربية ، نشرة الساعية، العدد (١١) مايو ٢٠٠٥م، لجنة إحياء التراث البحري والشعبي بالحامي.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

١٧. **عبدالله بن محمد باسنجلة (باسخلة)**، تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين الفاخر في تاريخ القرن العاشر، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد صنعاء ٢٠٠٧م.

١٨. **علوي بن طاهر الحداد**، المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى، تحقيق محمد ضياء شهاب، عالم المعرفة، جدة، ١٤٠٥هـ.

١٩. محمد بن عبدالرحمن بن شهاب، بيانات عن الحضارمة، لوثروب ستودارد الأمريكي، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نوهض، تعليقات الأمير شكيب أرسلان ، طبعة دار الفكر.

٢٠. **محمد حميد السلمان**، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة مابين ١٥٠٧ – ١٥٢٥م، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الإمارات العربية المتحدة ٢٠٠٠م.

٢١. **محمد عمر بافقيه**، تاريخ حوادث السنين ووفاة العلماء العاملين والسادة المربين والأولياء الصالحين، تحقيق د.أحمد صالح رابضة ، دار جامعة عدن للطباعة والنشر ٢٠١٠م.

٢٢. **نوال حمزة الصيرفي**، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض ١٩٨٣م.

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +20010081702225

المحتويات

إهداء ٥

تصدير ٧

مقدمة ٩

المبحث الأول

الغزو البرتغالي على الموانئ العربية وأسبابه ١٣

أسباب الغزو البرتغالي على موانئ شبه الجزيرة العربية.....٢٤

الدراسات التي تحدثت عن الغزو البرتغالي على الموانئ العربية..٢٨

المبحث الثاني

أهل الحامي ودورهم في التصدي للعدوان البرتغالي على ميناء عدن..٣١

المبحث الثالث

الغزو البرتغالي الغاشم على ميناء وساحل الحامي..... ٤٣

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

للنسخة الورقية زر WWW.DARALWEFAQ.NET أو كلم +200100817022

المبحث الرابع

مساندة أهل الحامي إخوانهم الحضارمة في صد العدوان البرتغالي على ميناء الشحر..... ٥٦

المبحث الخامس

القرصنة البرتغاليّة على السفن الحضرميّة الحاميّة وآثارها السلبيّة....٧٩

الآثار السلبية للقرصنة البرتغالية ٩٣

خاتمة ٩٦

المصادر والمراجع ١٠١

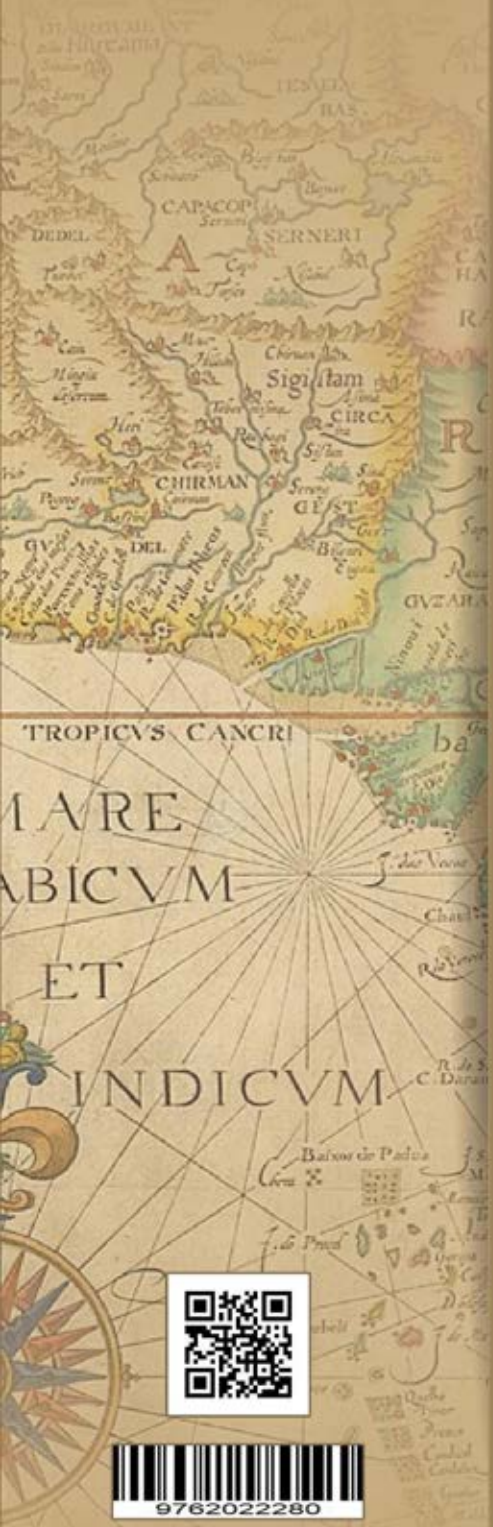

هذا الكتاب

تأتي هذه الدراسة تخليداً لدور أبناء الحامي في التصدي للعدوان البرتغالي، وإن كانت كتب التاريخ لم تتوسع في ذلك بذكر الأسماء والأشخاص الذين شاركوا في ذلك وأسماء سفنهم والمواقع ونحوها من المعلومات الهامة؛ إلا أننا أقدمنا على كتابة ذلك لرغبة جامحة في النفس منذ سنوات عديدة، ونظراً لشحة المصادر أحجمنا عن ذلك، ولكنها لم تتحقق إلا هذه الأيام بتوفيق الله تعالى.

آملين أن تكون هذه الدراسة قد أسهمت في توضيح ذلك الدور التاريخي لهذه المدينة الغنية بتاريخها الملاحي البحري منذ فجر التاريخ، ودور أبنائها الأبطال في مقاومة الغزو البرتغالي على حضرموت، والتصدي لهجماتهم الانتقامية في الشواطئ وفي أعالي البحار، بكل قوة وثبات نابعين من كمال إيمانهم بالله الخالق عزّ وجل.

دار الوفاق الحديثة للنشر والتوزيع
واتس آب: 2001008170225+
دار الوفاق
DAR AL WEFAQ
9762022280